محمد تامر

نوار

نوار

تألیف : محمد تامر

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

إهداء

مع كل عمل روائي أو غير روائي أشرع في كتابته أكرر إهدائي إلى زوجتي المستقبلية، والتي لا أعرفها ولم يقدر لي الله رؤيتها بعد، وليس الأمر مجرد إفراط في الخيال أو جوع عاطفي يتجسد في هذا الفعل، إنما الأمر حقاً أني مجرد شخصٌ حزين منهك مثقل بآلام الروح والجسد، دستوره ودرعه ولعنته في نفس الوقت الوحدة، ولا أخفي عليكم شعوراً يتربع على عرش عالمي الداخلي بأن حياتي ستصبح أفضل لو وجدت رفيقاً أطمئن إليه بقية عمري، وأواسي نفسي بوجوده مما قاسيته في أيامي السابقة، وأختبر معه شعور الأنس الذي لم أعرفه كثيراً في حياتي، وليس علي أن أشرح أكثر من ذلك إذ أنك ما كنت لتفهمني حقاً إلا إن كنت مكاني أو وضعت نفسك مكاني.

آمل أنكِ بخير وما زلتِ بانتظاري، لا آبه بمن يفهمني أو لا يفعل، كل ما أعرفه أن حبي لكِ رغم أني لا أعرف لك هوية أو شكلاً أو اسماً كان ولا زال محرك حياتي الدنيوي الشعوري طوال ما مضى من وقت، بعد إرادة ربي جل وعلا.

أعرف أنكِ إجابة كل أسئلتي وحل لغز وجودي، ودعوة لياليّ وأمنية عمري، وأود حقاً أن يعجل الله لقائي بك؛ فأنا أدرك الآن أني أحتاجه أكثر من ذي قبل!

أما عن هذه الرواية فقد بدأت كتابتها في فترة عانيت فيها خدراً انفعالياً واكتئاباً حاداً أصعب من أن أصفه، وكان كل هذا إضافة إلى قضايا وتجارب إنسانية

معاصرة أخرى كالخمول والخواء الروحي العام موضوعاً ومصدر استلهام لروايتي؛ والتي أعد فكرتها قمة إبداعي؛ وهذا ما جعلني أتريث في كتابتها؛ فأود لهامشها الأولي بالذات أن يكون بحالة جيدة إذ أن الفكرة وموضوعها عزيزين على قلبي، ولا أود التفريط فيهما بمنحهما صياغة لا تليق بهما.

محمد تامر

نوار

الفصل الأول

حاميها وسارقها

١

إن ما حدث هنا كان عجيباً ومخيفاً عندما اختبرناه للمرة الأولى، وظننتني وحدي مِن حَلَكِ الظلمات التي تكتنف قلبي مَن شعر به، واعتراني الرعب إذ أني ظننته مَرضاً نادَراً اختارني موطناً لاستقراره، وكان الوصف الأدق للأمر أن مكنون نفسي قد تجسد في حالتي الغريبة تلك - التي أصبحت حالة الجميع هنا بالمناسبة - فأنا خاوي الروح بارد الشعور ميت القلب ترتعد فرائصي من المجهول، لا أذكر كم مر من الوقت على آخر شعور حقيقي اختبرته سواء أكان نَيِّراً أم مظلماً، وعندما حدث ما حدث أحسست أن العالم يكمل رسم لوحة الفراغ واللامعنى التي اتخذتني صالة عرض لها...

لكن، أتعرف حقاً ما حدث؟ أيمكنك حتى تخمينه؟

بأية حال سأوفر عليك عناء التفكير وأسألك: كيف قد يكون حالك إن استيقظت ذات يوم ووجدت عينيك لا تبصران ألواناً على الإطلاق، وإنما تريان العالم بالأبيض والأسود فقط؟!

أما كنت لتشعر حينئذ مثلي، إن كانت روحك غارقة في ظلمات فوقها فوق بعض كروحي، أن الحياة تسخر منك، أو ترثيك لأن حالك أصبح مثيراً للشفقة لدرجة لا تُحتمل؟!

فقد كان هذا ما شعرت به، قبل أن أكتشف أن الأمر لا يتعلق بي وحسب، وأني لست محور الكون كما يرى كل إنسان طبيعي نفسه بَيدَ أن هذا أكثر ما يهلكه، وإنما كانت تلك حالة غريبة أصابت أهل البلدة كلهم؛ أكروماتوبسيا أو عمى ألوان تام جماعي – ولم أكن على علم بها بل قادني بحثي الشخصي البسيط إذ ذاك إلى هذه المتلازمة الطبية النادرة – وأذكر ما اعتراهم وقتئذ من رعب مثلما اعتراني خاصة بعدما اكتشفنا أن مدينتنا فقط التي أصابها ذلك، وأن العالم الخارجي بخير حال، وأن من يخرجون من عندنا إلى بلاد أخرى يكتشفون أن لعنتهم تلك ما زالت مرافقتهم، بيد أني سأفاجئك بما حدث خلال بضعة أشهر من هذا الأمر العجيب: تأقلموا!

وهذا أيضاً ما يفعله الإنسان الطبيعي في محاولته للنجاة في الحياة؛ يتناسى ويتغافل، ويتأقلم، وكثيراً ما ارتكب الإنسان جريمة السكوت على ما يصيبه أو يصيب غيره من بلاء؛ فتأقلم مع الطواغيت والإبادات الجماعية والعبودية وسرطان الفساد الذي أصاب المجتمعات وتفشى فيها على مر السنون والأعوام؛ وهكذا كان من الطبيعي أن يتجاهل أهل بلدتنا ما حدث، ويعودوا إلى قبور أنفسهم التي غشيتها الظلمات دون فراغ لبصيص من نور، أملاً في اقتراب يوم ينزلون فيه إلى قبور حقيقية أياً كان مصيرهم بعد ذلك!

إني أؤمن أن خطيئة الإنسان العظمى تسامحه في حق نفسه!

وهذا لا يمنع أن سكوتهم عن الأمر كان أعجب من أن أسكت أنا عليه، لكن حتى جهاز الشرطة تجاهل الأمر رغم غرابته الشديدة التي تشبه ما يحدث في أفلام الخيال العلمي، وهذا احتقار الإنسان لذاته الذي أكره، لكن حديثي هذا قيم على الأوراق وهراء إن وجهته لهم!

زرت أطباء بالطبع، واكتشفت أنهم يحتاجون من يعالجهم بدورهم!

وعلمت أن هذه المتلازمة لم يتم اكتشاف علاجها بعد، ولم يكن صعباً بالطبع أن ألمح نبرة القلق والرعب في أصواتهم وهم يسردون لي هذه الحقائق، ولا ألومهم لأني مثلهم – ومثل الجميع – ولم أكن وحدي من طلب العلاج بالتأكيد لكن كثيراً غيري عادوا مثلي بخيبة أمل متوقعة.

وبعد فترة من التأقلم الذي حدثتك عنه ظهرت ثاني أسوأ خطيئة – حسب زعمي – يمكن أن يرتكبها إنسان: الجشع والاستغلال، وأربطهما ببعضهما دائماً لأنهما سبب ونتيجة متلازمان دائماً في نظري؛ فقد استغل كثيرون هذه الأزمة وراحوا يصنعون عدسات خاصة لعلاج هذه الحالة ويبيعونها بأسعار خرافية – وفعاليتها مثبتة طبياً بالمناسبة – ولا بد أنك سمعت أو شهدت أفاعيل كتلك كثيراً في حياتك؛ لأنها ليست بجديدة على الإطلاق؛ ولأنها مسبب أساسي للتأقلم، وليس صعباً أن نستنتج هذا وأن نربط بين الاثنين!

لكن أتعرف ما العجيب والمضحك في آن واحد حقاً؟

أن من يشتري العدسات اليوم في بلدتنا ويرى الألوان مجدداً بشكل طبيعي تلحقه السخرية أينما ذهب!

نعم؛ البشر مع الوقت يتقبلون كون الشاذ هو القاعدة، والعكس صحيح، ومفتاح كل هذه الكوارث التي شهدنا مثلها كثيراً على مر التاريخ هو التأقلم، فكر وحسب فيما أقول!

أما عني – قبل أن أنسى – فاسمي يونس، وكنت محققاً تابعاً للشرطة في بلدتي لبعض الوقت؛ منعت جرائم وأنقذت أناساً واعتقلتُ مجرمين، وأمور أخرى كتلك التي تطالعها في روايات الأدب العالمي المترجم أو تراها في أفلام الإثارة – التي أصبحت كلها بالأبيض والأسود هنا رغماً عنا – لكني تجاهلت مستقبلي معهم لأسباب لا مزاج لي لآتي على ذكرها الآن، واستقلت منذ فترة ليست بقصيرة، ولا

أخفي عليكم أن بعض رفاقي السابقين أحياناً ما يتواصلون معي سراً طالبين مساعدتي في بعض القضايا التي تؤرقهم، إن تركك لعمل ما إن كنت جيداً فيه شرطه الوحيد أن تموت أو ألا يعرف أحد أنك كنت جيداً فيه!

رغم أن هذه الأعمال تعيد إلي ذكريات لا أحبها، لكن قول لا أو رفض طلب ما لأحد أشق علي مما سواه، للأسف الشديد.

حقاً؛ إن خطيئة الإنسان العظمى تسامحه في حق نفسه!

ربما نتوقف هنا لبعض الوقت، وسأبدأ الحكاية لاحقاً، وقد كانت السطور السابقة تمهيداً لما هو قادم وحسب.

أما عن سر كون ما أكتبه فصيحاً - وبليغاً كما أزعم - هكذا فهو ليس بعمل ذكاء اصطناعي أو كتابة شخص آخر كما قد يتبادر إلى ذهنك، وإنما لأني منذ صغري أحببت الأدب كاهتمام جانبي، وكنت قارئاً شرهاً تؤنس نفسه وتشحذ عقله البلاغة والفصاحة وشتى موضوعات الأدب، وطورت مَلَكَة الكتابة لدي في مذكراتي الشخصية، ومنها تلك المجموعة المتسلسلة التي أقص عليك فيها حكايتي الغريبة تلك.

وبأية حال فإن شغفي القديم هذا فشل في انتشالي من معاناتي وفراغي وخوائي، وسأكون كاذباً إن قلت أني أشعر حقاً بما أكتب، وسأكون كاذباً أيضاً إن قلت أن مشاعري قد ذهبت تماماً بلا عودة؛ فهي بداخلي محتجزة خلف قلبي كذكرى حدث بعيد لا تستدعيه الذاكرة وتكون صورته بوضوح...لكنها موجودة!

وهذا يمنحني أملاً ضئيلاً، بيد أنه يجدد بداخلي حزناً عظيماً!

٢

سبق وأخبرتكم أن رفاقي القدامى كثيراً ما يطلبون مساعدتي سراً في بعض الأمور، ومن هذه النقطة سنبدأ الحكاية، ولنأمل أن تسعفني ذاكرتي على الأقل بتذكر الأحداث الهامة – رغم أنها صعبة النسيان بل شبه مستحيلة كما سترى في المذكرات المقبلة – واغفر لي نقص بعض التفاصيل مما أقص عليك، وأرجو بالطبع ألا يفسد هذا عليك متعة الحكاية.

هه...متعة الحكاية، أنت تقرأ أحداثها لتستمتع بها وأنا عشت أقسى وأشق أيام حياتي حينما عاصرتها!

بدأ الأمر حينما اتصل بي أحد زملائي – ولا أنعتهم بأصدقائي لأنهم لا يذكرونني إلا حينما تدفعهم حاجة لذلك، وهذه ليست سمة أريدها في صديق لي – وقد أغدق علي بالمجاملات والأوصاف الطيبة التي لا أتمتع حتى بنصفها، مقدمة واستهلال رائع ومعتاد من أمثاله لجملة: "أود أن أطلب منك خدمة"!

وبصراحة، لا أخفي أنني كنت في هذه الفترة قد بدأت أُعَوِّدُ لساني على قول "لا"؛ لأنها منجية الإنسان في هذا الزمان، وكررت رفض طلبات كثيرة بالفعل من زملائي؛ إذ أني لم أرد حقاً أن أربط نفسي مجدداً وقتئذ بأعمال التحقيق والشرطة، وكنت أعاني اكتئاباً شديداً نتيجة ما حدث بشأن الألوان ونتيجة أمر آخر لا أود ذكره الآن؛ وقد تفاقم وتعاظم هذا الاكتئاب فغدا أزمة وجودية مهلكة لعقلي، وجاعلة

إ ياي فاقد المشاعر والأحاسيس تقريباً؛ ما عدت أشعر بلذة الأدب أو أستطيع تذوق الجمال من حولي، ورغم أن هذا كله طبيعي بالنسبة لما نحياه لكنه كان زائداً عن حده عندي، أقسم على ذلك!

وإثر كل هذا ورغم خدري الانفعالي الذي يفتك بروحي قررت أن أقبل؛ عل خدمته تلك تمنحني مغامرة جديدة قد تعيد إلي صوابي وتذكرني بقيمتي وتعرفني مجدداً على ذاتي وترد إلي مشاعري...إلخ!

تحدث شارحاً طبيعة المهمة؛ أرادني أن أتحرك بشكل سري بصفتي مدنياً – رغم أن بعض مجرمي الشوارع يتذكرونني من الأيام الخوالي – وألقي القبض على لص، ولم يكن اللص من فئة المبتدئين بالطبع ولم أظن ذلك عندما وصفه لي كأنه شيطان مريد، وراح يرمي كلمات بشأن كونه تابعاً لمجموعة إرهابية ويحاول سرقة أشياء لهم وأمور أخرى من هذا القبيل...وهنا شعرت أنه يبالغ!

وهذه ليست المرة الأولى التي يطلب مني فيها القبض على مجرم دولي يتضح في النهاية أنه سارق شطائر من فصول المدارس!

لكني طاوعته بأية حال فمن يدري؛ لربما كان محقاً هذه المرة، رغم أن شكوكي لم تزل عني بسهولة بالطبع.

أعطاني بقية التفاصيل، وأماكن ومواعيد تواجده وخطوط سيره، وشعرت نوعاً ما أنه يعبث معي إذ أن الإمساك به بدا سهلاً جداً من وجهة نظري، لكنه أخبرني أنه سريع البديهة ويكشف الضباط الذين يحاولون القبض عليه كل مرة؛ وهنا أصبح الأمر شيقاً بالنسبة لي؛ فقبلت المهمة، وأغلقت المكالمة بعد أن أكد علي أن أتصل به بعدما أمسك به وأحتجزه ليأتي ويتسلمه، ثم نمت.

مجموعة إرهابية...بالطبع كان بديهياً أن أشعر أنه يضخم الأمور؛ فأنا كنت مع الشرطة يوماً ما وأعلم كيف تسير الأمور، وأعلم أنهم لا يحمون إلا أنفسهم ومصالحهم، أما الشعب فهو نكتة رخيصة عتيقة عندهم، وبأية حال من العبقري الذي سيشن هجوماً إرهابياً على بلدة أصبحت كأنها فيلم قديم من عهد السينما الصامتة؟!

لربما أقتنع إن قال أنه يعمل على كشف مجموعة إرهابية تسببت مثلاً فيما حدث للمدينة، لكن حتى هذا الأمر تجاهلوه تماماً كأنه لم يكن؛ وهذا ما يجعلني أستثقل تصديق الشرطة وأشعر دائماً أنهم يخفون أكثر مما يبدون.

بالفعل في اليوم التالي ذهبت حيث نصحني زميلي الوغد هذا وقد دسست مسدسي في جيبي، المفترض أنه مقهى مفتوح وعلي أن آخذ طاولة في مكان استراتيجي أستطيع من خلاله تحديد هوية رجلنا من خلال الأوصاف التي أعطانيها زميلي الوغد أيضاً، وعندما فعلت هذا رحت أجول ببصري في المكان وأنا أدعي الاستمتاع بشرب قهوتي، روتينيات اعتدتها في عملي القديم، لكن ما لم يكن مألوفاً لدي في عملي القديم بصراحة هو أنه، بمجرد أن التقت عيناي بعينيه؛ قام يركض هارباً!

ولا أخفي أني من الدهشة فغرت فيّ وفتحت عينيَ عن آخرهما، لكني قاومت دهشتي واعتمدت على غريزتي وسرعة ردود أفعالي؛ فشرعت أركض مطارداً إياه بسرعة من يهرب من مصيره إن لاح له في الأفق، ولم يكن هنالك وقت بالطبع للالتزام بالأخلاق النبيلة ومحاسبة صاحب المقهى، ورؤيته - هو ورواد المقهى كلهم بالطبع - لي أركض هكذا تقودهم لاحتمالين؛ إما أني ضابط أطارد مجرماً، أو أن كلانا نعمل في حقل المخدرات والممنوعات وغيرهما ونطارد بعضنا لمجرد أن

بيننا سوء تفاهم، ومن الرائع أن الاحتمالين يقودان إلى نتيجة واحدة: أني لن أضطر لمحاسبة صاحب المقهى!

بينما كنت أطلق ساقيّ للريح دارت بخلدي أفكار وأسئلة بالطبع، لكن سؤالاً منها استحق أن آخذه على محمل الجد أكثر مما سواه: لماذا هرب عندما رآني؟ لا بد أنه يعلم أني ضابط وهذا قادني لسؤال أصعب تتعدد احتمالات إجابته: كيف له أن يعرف أني ضابط؟!

حسناً، هنالك طريقة قد تفلح لأعرف كل هذا؛ أن أمسك به وأسأله بنفسي!

ربما سيكذب أو لن يتحدث أصلاً، لكنها الطريقة الوحيدة أمامي لأجيب هذا السؤال الذي كاد يصيبني بالجنون قبل أن أنهي مطاردتنا الممتعة تلك حتى!

إن هذا الوغد يركض كالهر ويحفظ الشوارع الجانبية كأنها منهجه الدراسي في عامه الدراسي الجامعي الأخير، غريب حقاً أنه ماهر إلى هذه الدرجة!

ربما لم يكن زميلي الوغد يبالغ!

عندما كدت أمسك به وجدته فجأة يتعلق بأفاريز نوافذ منزل بسيط في أحد الشوارع وبشقوقه البارزة ويتسلقه كالقرد، وهذه أكثر فئة أكرهها من اللصوص: الفئة التي تهوى ألعاب Assassin's creed!

لم أكن على نفس القدر من الرشاقة لكني حاولت لئلا يكون مظهري محرجاً أمام قرد الشمبانزي هذا؛ فتقمصت بدوري دور غوريلا وشرعت أتعلق بنوافذ المنزل وشقوقه ببعض من الجهد والمشقة، وساعدني الأدرينالين كثيراً لأعتلي سطحه أخيراً بعد مجهود أليم لكنه لم يكن بطيئاً لحسن الحظ؛ فوجدته واقفاً يلتقط أنفاسه وقد نزلت عليه السكينة ظناً منه أني لن أستطيع مجاراته، وقد أفزعته رؤيتي

مجدداً فركض نحو حافة المنزل وقفز منها إلى سطح البناية المقابلة المنخفض عنه، وتدحرج لبضع ثوان قبل أن يقوم ليحاول استعادة توازنه.

وقد كانت القفزة كبيرة حقاً ولم يكن لدي أمل في تنفيذها على الإطلاق، وراح عقلي يبتدع سيناريوهات رائعة وشيقة أهمها اصطدام رأسي بجدار المنزل بدل التمسك بحافته وسقوطي صريعاً بعد ذلك؛ وقد كان هذا السيناريو رائعاً بالنسبة لشخص مثلي لا يرى جدوى من حياته ولا ينتابه فيها الشعور بأي شيء، ها هي فرصتي قد أتتني على طبق من فضة، سأقفز إذن وليكن ما يكون!

وبالفعل استجمعت كل قواي وشحذت همتي، ثم ركضت نحو الحافة وأطلقت جسدي كله للريح هذه المرة؛ آملاً أن أموت، لكني للأسف ما زلت أخط لكم نصوص هذه المذكرات بيدي حتى اللحظة!

أكملت القفزة بنجاح لم أصدقه، وتلاحقت أنفاسي بسرعة رهيبة، لكني أردت حقاً لهذا الأمر أن ينتهي؛ فاستللت مسدسي وأطلقت رصاصة سريعة بين قدميه، ومن سوء حظه أني كنت جيداً في الرماية، ثم قلت له: "حتى لو كنت ستطير في الهواء هذه المرة، تعلم الآن أني أستطيع بسهولة أن أفجر رأسك من موضعي هذا؛ لذا توقف ودعنا نتحدث كرجلين راشدين!".

ولمفاجأتي وصدمتي وجدته قد توقف بالفعل وهو ينظر إلي بعينين دامعتين مناشداً إياي ألا أقتله: "أرجوك يا سيدي، الأمر ليس حقاً كما تظنونه، أعلم أني أجرمت وأخطأت لكني لا أستحق أن أُقتل!".

عقدت حاجبيّ وسألته: "نظنه؟ أنت تتحدث عمن أفلتت منهم قبلي إذن، ويبدو أنك فعلت شيئاً فظيعاً جعلهم يحاولون قتلك!".

=ليس فظيعاً حقاً يا سيدي، أقسم لك، لو أنكم فقط تستمعون إلي...

-كيف أثق بك وقد عرفت أني ضابط بمجرد أن التقت عيوننا؟! أنت لا تبدو بسيطاً كما تدعي!

=لأنني حفظتكم! أنت عاشر ضابط يود قتلي، وتصرفاتك كانت واضحة جداً بالنسبة لي؛ كنتَ بكل بساطة تتوقف بعينيك عند كل شخص لبضع ثوان وهذا يعني أنك تقارنه بأوصاف محددة في ذهنك...

-اللعنة، أنت حقاً ذكي!

=وبريء أكثر مما تظن يا سيدي!

-لكن الذكاء غالباً لا يكون دليلاً على البراءة!

=اعتبرني استثناءَ واستمع وحسب، أرجوك!

-...تحدث.

=كل ما حدث أني حاولت سرقة عدستين ملونتين من أحد الأثرياء الذين يعملون في صناعتها وبيعها، عدستين فقط من مخزون كامل وقد كُشِفت؛ فهربت دونهما، وغضب هذا الرجل بشدة حسبما استنتجت، ولا بد أنه يطالب الشرطة الآن بقتلي وهم يستجيبون بالطبع لأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه الأثرياء...

وقبل أن يكمل حديثه دفنت وجهي في كفي، وأخذت بضع خطوات على السطح وأنا أضحك، وعندما قطع كلامه ليسألني ما بي أجبته: "نظريتك صحيحة، أنا أعتذر منك، أنا حقاً آسف لك وآسف أني وثقت بما أخبرت عنك، كان علي أن أعلم أن الشرطة لم ولن تتغير على الإطلاق، وأنها مجرد جزء من هذه اليوتوبيا الحقيرة التي تسعى إليها الحكومات على مر التاريخ لتهميش الناس العاديين وتعظيم أمر الأثرياء، إن ثالث أسوأ وأغبى خطيئة قد يرتكبها الإنسان هي ظنه أن الحكومات تسعى لمصلحته، وأن الشرطة تسهر على راحته!"

=...وما أول خطيئتين يا سيدي؟!

-ماذا؟ اسمع، لا تشغل بالك!

=أياً كان ما تقوله يا سيدي!

-أهنالك ما تود إضافته إلى أن أقرر ما إن كنت سأقبض عليك الآن أو أفعل شيئاً آخر؟!

=هذه العدسات لم أردها لنفسي، بل أردتها لابن رجل أعرفه يتمنى رؤية الألوان، وقد أعجزه الاكتئاب في سن صغير أكثر منا؛ فأشفقت عليه وحدث ما حدث، وأنت تعلم أن الأثرياء لا يريدون لنا خيراً يا سيدي، وأقول ذلك لأني أرى أنك لست كمثل سابقيك، لا بد أنهم أخبروك أموراً عظيمة عني لكني أقسم لك أن لا شيء منها حقيقي دون أن أسمعها منك حتى!

-...هذه ليست أول سرقة لك على ما أظن!

=أنا أسرق من أجل من أشفق عليهم وحسب!

-ألا تشفق على نفسك إذن؟!

=كلا يا سيدي، إنني وحيد وليس لدي من أهتم لأجله، غيري يستحقون الشفقة أكثر مني!

-أنت الآن مطلوب للعدالة، أتشعر بالأمان عندما تعود حيث تسكن؟!

=الحي الذي أقطن فيه سكانه يعرفونني يا سيدي، ولا أحد منهم يقول كلمة عني إطلاقاً!

-ولم عساك تكشف لي كل هذا دون أن تشك أنني قد أستغله...

=ولم عساك تكشف لي أنك تكره الشرطة التي تعمل لحسابها يا سيدي؟!

-...لم؟!

=لأننا مظلومين يا سيدي، والمظلومون إخوة على اختلاف جبهاتهم!

-وأنى لك أن تعلم أني مظلوم؟!

=لأن ما قلته يدل أنك خُدعت كثيراً بل وربما اعتقلت أبرياء في حياتك بسبب توجيهاتهم!

-ألا يجعلني هذا ظالماً؟!

=بل مظلوماً يا سيدي؛ فأنت لا تقدر على رفض أوامرك، لكنك لا تحبها أو ترضاها، الظالم هو من يظلم لأنه يريد أن يظلم، أما من يظلم وهو يكره ذلك لأي سبب قهري هو مظلوم، هذا على الأقل ما أظنه أنا يا سيدي!

-... أتعلم ما سيحدث الآن إذن؟!

=...ماذا سيحدث يا سيدي؟!

اتصلتُ بزميلي الوغد اللعين ذاك، وأخبرته باختصار أني لم أجد رجله المطلوب، وأني فقدت اهتمامي بالأمر وعادت إلي ذكرياتي التي أكرهها بشأن العمل معهم؛ فتفهم الأمر بسرعة - لأنه أحمق قبل أن يكون وغداً فلم يشك في أي شيء حتى - وأغلق المكالمة، وعندما نظرت إلى روبن هود الذي يقف أمامي هذا وجدت تعابير وجهه قد تغيرت وكستها الدهشة وهو يسألني: "أنت لا تعمل حقاً الآن مع الشرطة؟!"

- تركتهم منذ فترة لأسباب كثيرة، ولكن يبدو أنهم يرسلون رجالاً كثيرين حقاً للإمساك بك حتى لو كانوا خارج الجهاز مثلي!

=ألهذه الدرجة؟!

-إليك ما سيحدث أيها اللص النبيل؛ ستأتي معي إلى منزلي وسأخبئك منهم لبعض الوقت، وسأتأكد أننا سنذهب إلى هناك عبر طريق آمن لا يكشفنا فيه أحد، وسنتحدث لبعض الوقت عن أمور شتى قبل أن أـخذ قراري النهائي بشأنك!

=أحقاً ستفعل يا سيدي؟!

-تبدو فرحاً بهذا!

=لأنني حقاً ممتن لما فعلته لي، ستزيح عني هماً عظيماً!

-...سنرى، اسمي يونس بالمناسبة.

=تشرفت يا سيدي، واسمي نبيل!

-أتسخر مني؟!

=كلا، اسمي حقاً هو نبيل!

-...يبدو أن من سماك كان لديه بعد نظر، أو قصر نظر...المهم الآن أيها الشمبانزي الوغد، كيف سننزل إلى الأرض مجدداً؟!

٣

أسمعكم تقولون أنه من الغريب أن يثق ضابط بلص، ولكني أرى أن الأغرب هو ثقتكم أنتم بأن الشرطة حقاً تسهر على حمايتكم وراحتكم!

لو لم يفعل الأثرياء ما فعلوه لما وجدنا أمثال نبيل يحاولون السرقة، لكن حكوماتنا تترك الفرصة للسرطان كي يتفشى ثم تشكو عدم قدرتها على استئصاله، من خلال جهاز الشرطة المحترم الأمين الذي لا يأبه إلا للأثرياء وذوي النفوذ ليضمن وجوده، ويساعد من هم أكبر منه لدحر طبقات الشعب كلها عدا طبقات الكبار، وكلامي هذا ليس غريباً على من يقرأ في التاريخ ولو قليلاً.

أنا، كمحقق شرطة سابق، أقول أن الوغد الثري الذي يصنع العدسات بأسعار خيالية ليستغل الأزمة بها هو من يستحق أن يُزج به في السجن، لا نبيل؛ لأنه من المنطقي جداً ألا يفعل نبيل ما فعله لو كانت العدالة الحقيقية حاضرة، ولو كان الناس قد حصلوا على العدسات كحق أساسي لهم حتى لو بالمال لكن بسعر زهيد على الأقل، ومن حق الناس أيضاً بالمناسبة أن تحقق الشرطة في الأمر بجهد أكبر من ذلك لأجلهم، لكن الطواغيت باختلافهم على مر التاريخ يرون أن الظلم هو ألا تظلم، والعدل لا يمنحونه إلا لمن يعجبهم ويكون على شاكلتهم وهواهم...آه يا دنيا!

أتى نبيل معي إلى منزلي بالفعل بأمان، أجلسته على أريكة مريحة في الصالة ثم اتخذت مجلسي بجانبه، ولاحظت شروده وهو يتأمل المكان فقرأت أفكاره قبل أن أفتتح الحديث وأقول: "أسمع ذهنك بوضوح، والإجابة هي نعم؛ ليس كل أفراد الشرطة يحيون في منازل فخمة كما تظن..."

قاطعني مسرعاً: "فقط الشرفاء منهم يا سيدي!"

ابتسمت رغماً عني: "أشكرك على الإطراء يا نبيل، لكن المنزل بحالته تلك فخم بالنسبة إلي، بكونه بسيطاً ومريحاً هكذا، أحب المكان حقاً حتى وإن كنت لا أطيق نفسي!"

=لم أقل شيئاً على الإطلاق يا سيدي، هذا رد أتوقعه منك لأنك حقاً شريف!

-تكرار الإطراء يفقده قيمته يا نبيل!

=أنا أقرر حقيقة رأيتها!

-كيف وفيم رأيتها؟ في إحضاري لك إلى هنا...

=وفي حديثك عن نفسك وثقتك بي كأنك تعرفني منذ زمن، لا أودك أن تضغط نفسك يا سيدي، إن كان سيريحك حقاً تسليمي...

-أتسألني هذا السؤال بعد سيرك القردة الذي أقحمتني فيه منذ قليل؟!

=...أنا آسف يا سيدي.

-...إني أعلم أن كل شيء يعج بالفساد حولنا يا نبيل، ومثلك أرى الظلام في كل ما حولي؛ وهذا جعلني بارداً لا آبه بشيء، وأصبح الكثير يعتمل في صدري دون أن أجد من أبوح به له، ولذا فإن أخبرتك أسراري الشخصية كلها الآن فاعلم أني لا آبه لما ستفعله بها...

=أنت تعطيني قيمة أكبر مما أستحق بظنك أني قد أحاول إيذائك حقاً!

-...آمل أن تكون محقاً في هذا!

=...هل لي أن أسألك أمراً وأشكو لك أمراً آخر؟!

-تفضل.

=أوجدتم سبباً لما يحدث؟!

- لا تتحدث بالجمع يا نبيل؛ لم أعد منهم بعد الآن، ربما أعمل على الهامش أحياناً وأساعد بعض من أعرفهم لكن...

=إذن أوجدوا هم سبباً لما يحدث؟!

-لا، وتعرف أنهم لا يأبهون، ما الذي تحاول قوله بالضبط يا نبيل؟!

ولدهشتي وجدته قد أجهش في البكاء وهو يكمل حديثه: "هذا يقودنا إذن إلى ما أود أن أشكوه لك؛ إن حياتنا صعبة يا سيدي في الحي ونحيا على قوت اليوم، وننام محرمين على عقولنا الأحلام، لكن الشرطة تستهدف أماكننا البسيطة والتجار عندنا دون وجه حق، ويتصيدون لنا الأخطاء ولو كانت بسيطة، ولا يحاولون حتى الضغط على الأثرياء لينتبهوا إلى البئر الذي نحيا في قاعه، أو ليتفضلوا علينا ببعض العدسات على الأقل حتى لو كانوا سيعطونها لقليل منا، ما ذنب ابن هذا الرجل الذي حاولت السرقة من أجله؟! أتظنني حقاً المجرم هنا يا سيدي كما يظنوني؟!"

كان جسده يرتعش نتيجة انفعاله بشكل لا يدل إطلاقاً أنه يختلق أكاذيب أو يحاول خداعي؛ وهذا حذا بي أن أشفق حقاً عليه، وأن أرى فيه في تلك اللحظة عنصراً غير في ذهني كثيراً عن مفهوم المعنى ووجود الإنسان؛ فأنا اليوم، بعد أن كنت محققاً يحيا حياة تنافس حياة شيرلوك هولمز، أصبح وجودي مفرغاً من

القيمة والمعنى لن تتأثر الحياة به أو بعدمه، أما نبيل، روبن هود حيه، فحياته مهمة لجيرانه ورفاقه رغم أنه سارق لدرجة أنهم يتكتمون عليه ويتحملون المشاكل والمضايقات نتيجة لذلك بالطبع؛ فهو بطلهم الذي يسرق ممن يظلمونهم، ويعبر عن نزعتهم لقتال ظالميهم...هذه نكتة وجودية تجعلني أعيد التفكير في معنى الحياة كلها منذ أن خُلق آدم وحتى اللحظة الحالية!

ربتت على كتفه وأنا أحاول تهدئته قائلاً: "اهدأ يا نبيل، اهدأ أرجوك، كل ما نقاسيه هنا ليس تجربة فريدة كما تظن، هذا يحدث في كل أركان العالم بشكل أو بآخر وعلى مدار التاريخ...أنا لا أراك مجرماً يا نبيل، لكن هذا لا ينفي خطأ محاولتك سرقة هذا الوغد، لنكن عادلين في حديثنا وأحكامنا، ولكن بالطبع خطيئتك لا تساوي مثقال ذرة من خطاياهم، أعلم هذا لأني كنت بداخل هذا النظام وأفهمه جيداً، ولي عدة حكايات شيقة عن تمردي على كثير من أوامرهم بالمناسبة، يمكنك أنك تقول أنهم ارتاحوا مني أكثر مما ارتحت أنا منهم!"

بدأت شفتيه تفرج عن ابتسامة صغيرة ببطء، وشجعني هذا لأسرع الأمر فأكملت وأنا في غمرة حماسي، وقد أخفيت داخلي إعجاباً عظيماً به ورغبة مني أن يكون لحياتي معنى مثله: "أليس ما يغضبنا أن الشرطة لا تأبه؟ إذن لم لا نأبه نحن؟ لم لا أحقق في الأمر بنفسي بمساعدتك؟!"

التفت إلي مسرعاً ويبدو أن أساريره قد تهللت لجزء من الثانية قبل أن يقول مستدركاً: "لكني ما زلت مطارَداً..."

-سنغير شكلك قليلاً بالطبع، ملابس جديدة وقصة شعر وحلاقة ذقن، كل هذا كفيل بجعلك إنساناً جديداً!

=...لكن، أتتوقع أن تصل أنت إلى نتيجة بينما لم يصلوا هم؟ وأقسم أني لا أقصد التقليل من شأنك لكن...

-لا بأس يا نبيل، أفهمك، وبأية حال هم لم يحاولوا جاهدين حتى، سيكون هذا هو الفرق بيننا وبينهم؛ أننا سنحاول ولن نستسلم للتأقلم، حتى ولو لم يكن هنالك علاج أو نهاية لما نحن فيه فالمهم أن نجد سبباً يريح أذهاننا من أسئلتها الغزيرة.

=معك حق يا سيدي، وأنا طوع أمرك.

- ...كلا يا نبيل، أنت حر ولست طوعاً لأمر أحد، أنت مساعدي من الآن فصاعداً!

=كما ترى يا سيدي!

- حسناً، علينا كبداية أن ندرس أحوال الناس في المدينة أكثر ونكون صورة واسعة عن الحالة العامة لهم؛ ومن أجل هذا ستكون مخبري؛ لا بد أنك خبير أكثر مني حتى بالشوارع وأسرارها وبالبلدة وأهلها...

=ولكن كيف يساعدنا هذا يا سيدي؟

-إن ما حدث هنا يا نبيل لا يمكن لفاعله إلا أن يكون عبقرياً بحق، وهو لم يقتل الناس بل حرمهم من نعمة الألوان؛ وهذا يعني أننا نتعامل مع شخص فريد من نوعه، لقد فعل هذا لأنه أراد أن يبلغنا رسالة ما، وأنوي فهم هذه الرسالة من خلال تحليل الحال العام للناس!

=...كيف تعرف كل هذا يا سيدي؟!

- أعرفت الآن لماذا يطلب أصدقائي مني تحديداً مساعدتهم حتى بعدما تركت الخدمة؟!

=أنت عبقري!

-أراهنك أن أحداً لم يفكر مثلي، لكن الأمر واضح كوني رأيت أموراً مشابهة في أدب وسينما الديستوبيا أو في فكر الأشرار ذوي عقد الانتقام أو جنون العظمة أو العباقرة المخابيل... كل هذه احتمالات حتى وإن لم يكن الأمر دائماً متعلقاً بعملية إعماء عامة؛ فهذا تجديد رائع في الشر بصراحة يستحق تحويله إلى فيلم أو رواية إن استطعنا حقاً كشف سره...

=أشعر أني لا أفهم كثيراً مما تقول يا سيدي!

-لا تقلق؛ ليس عليك أن تفعل!

=...إذن، كل ما علي فعله الآن أن أستطلع أحوال الناس وآتي لك بأخبارهم؟

-نعم، بقدر إمكانك وبشكل عشوائي، استمع إلى أحاديث الناس واستعلم عن حيواتهم ومزاجهم وآرائهم، ولا تلفت الانتباه كثيراً...وسأعلمك بضعة أمور قد تساعدك.

=أنا رهن إشارتك يا سيدي!

-إذن؛ دعنا لا نضيع مزيداً من الوقت.

محمد تامر

نوار

الفصل الثاني

الأسود يليق بالجميع

(قهراً)

٤

عندما أردت أن أعلمه الرماية؛ وجدت أنه يستطيع تعليمي وتعليم ألف غيري إياها!

مواهب رائعة في التجسس والتنصت، وربما لم يكن ما تعلمه مني سوى بضع نصائح بشأن ما ينبغي أن يسأله من أسئلة، وأسمعكم تقولون أنه يجب علي أن أحذر منه لأن مهاراته مثيرة للشك أو أنني أذكر هذا مثلاً كخداع لكم، لكن أنى لكم الشك فيه بعد ما قاله؟!

نبيل حقاً نبيل، وليس هذا حرقاً لأحداث مررت أنا بها، لكني أحترم الرجل حقاً لدرجة تجعلني لا أتحمل حتى أن يسيء به الظن قارئ هذه المذكرات!

بالفعل نزل إلى الشوارع بهيئته الجديدة، وكنت أطمئن عليه كل يوم لمدة أسبوع من مهمته التي شرحتها له سابقاً، وعندما انتهى منها بالفعل زارني مجدداً، وقد طمأنني أن أحداً لم يعرفه حتى أهل حيه لم يتعرف أغلبهم عليه، ومن تعرف عليه أمره نبيل أن يصمت وأخبره أنه يتخفى وحسب عن الأنظار لبعض الوقت، وقد أزعجه أن يشعر بغربة كتلك بين من كانوا وطنه الوحيد ولا زالوا، لكني طمأنته أن الأمر لن يطول وأنه قريباً سيعود إليهم بحكاية شيقة يقصها عليهم؛ فيزيد فخرهم به، لكني وجدته يرد علي رداً ترك في أثراً بليغاً: "لكني لا أهتم لكونهم فخورين بي وحسب، فخرهم بي لن يحل مشاكلهم أو يمنحهم حياة كريمة

أو يعيد إليهم الألوان، ولا يعني هذا أني ألومك يا سيدي إذ أني أعلم أنك لا تستطيع حقاً فعل شيء بهذا الصدد!"

أثارت كلماته تلك وجداني، وشعرت لأول مرة منذ زمن طويل أن أشعر بالتعاطف مع أحد!

وأتاه ردي: "لكنك ستصبح رمزاً لهم يا نبيل، ويوماً ما حتى ولو لم تكن أنت موجوداً في هذه الحياة، سيأخذون حقوقهم ولو بالقوة ممن جاروا عليهم، وفي غمرة أفراحهم سيتذكرون اسمك، أعلم أنه يبدو حديثاً خيالياً ولكن..."

=لا يهم يا سيدي، أنت محق؛ ما أفعله اليوم ربما يحدد ما سيفعلونه هم غداً، أنا معك!

-رائع يا نبيل، والآن أخبرني كيف سارت مهمتك، ما الذي علمته عن الناس بالضبط؟

=أغلبهم يحزنهم ضياع الألوان يا سيدي، ويبدو أن البهجة ما عادت تزور منهم أحداً بل حل محلها الروتين والملل وتكرار الأيام، والشباب فقدوا شغفهم ورغبتهم في القيام بأي شيء لأجل أنفسهم حتى أو لأجل غيرهم، والكبار يتمنون أن يأتي موتهم سريعاً وأصبحوا يرون فيه مخلصاً لهم من معاناتهم، هذه هي خلاصة ما اكتشفته يا سيدي؛ كأن الناس أصبحوا خالين من كل شيء إلا اللحم والدم، ما عاد هنالك ما يبهجهم أو يثير فيهم أية مشاعر أو يدفعهم للتقدم خطوة في الحياة!

-بل يريدون أن يعودوا زاحفين إلى أحضان العدم...سهل أن نفهمهم بالطبع!

=أنا أشعر بهم يا سيدي أيضاً لأن حالهم ببساطة لا يختلف كثيراً عني!

- فلندع الرب ألا يظل هذا الحال قائماً يا نبيل، وأن ينقشع هذا الظلام حتى لو لم نكن نحن موجودين لنشهد هذا.

=آمين.

-أهنالك أمور أخرى لفتت انتباهك؟

=الناس يشعرون بحيرة ويحيون في انقسام رأي بين كون ما حدث هنا غضب من الرب قد نزل علينا، وبين كونه حادثة غريبة لها أسباب علمية أو عسكرية، وبالطبع يشتد هذا الجدال كون الحقائق خلف الأمر مجهولة كلياً.

-هذا طبيعي، ولكن ألم تلحظ شيئاً غريباً حقاً؟

=كلا يا سيدي، هذا كل شيء.

- لا بأس، رائع يا نبيل، وما قلته قد يساعدنا كثيراً.

=أحقاً؟

-أكثر مما تتخيل يا نبيل، إننا نتعامل مع مجرم فريد من نوعه كما أخبرتك، كل هذه المعلومات ستجتمع وتسدل الستار عن الحقيقة قريباً.

=لم تتفاءل هكذا يا سيدي؟!

-لا أدري يا نبيل، لكن شيئاً ما يؤكد لي أن المتسبب...أو لنقل المتسببين بكل هذا لأنه أيضاً احتمال وارد، قد خرجوا من الشوارع، من الحياة، من رحم هذه المعاناة، لأن حال الناس اليوم لم يختلف كثيراً من الأساس عن حالهم قبل حدوث كل هذا، بل ساء وحسب ورافقه تأقلم متوقع منهم...سنكشف السر يا نبيل، علينا ذلك قبل أن نجن!

٥

أتعلمون حقاً ما هي الكارثة المشتركة بين مشاعر الاكتئاب والخواء الروحي وفقدان المعنى والخدر الانفعالي؟

أن لا شيء على الإطلاق يستطيع انتشالك أو إنقاذك منهم!

لا حل ولا مهرب ولا ملجأ، بكل بساطة أي منهم يعني أنك فقدت نفسك إلى الأبد، لا أقول هذا لإحباطك لكني لن أكون مرتاحاً وأنا أكذب عليك، الحل الوحيد للتعامل مع هذه الأمور ربما يكون التعامل مع أطباء نفسيين أو متخصصين في أمراض المخ والأعصاب حسب الحالة، وأقول ربما لأن نسبة نجاحه أيضاً أقل بكثير من فشله!

ما بالك لو اجتمع كل هذا في؟!

وهذه لم تكن لعنتي وحسب بل أعدها لعنة أغلب البشر في هذا العصر، وكل ما حولنا من ماديات ومعنويات يؤدي إليها وإلى السقوط بين براثنها، كل الطرق تؤدي إلى ضياع الإنسان منه، وغربته عنه وعن كل شيء آخر.

إن الإنسان المعاصر هش، لا يعرف في حياته سوى الألم والتأقلم، لا معنى له ولا وجود، مجرد ظل أرهقه تتبع جسد لا قيمة له في العالم، مجرد رقم ضمن مصفوفة مصيرها هلاك جماعي بالملل، لا يستطيع تذوق الجمال أو الشعور بالحياة أو تنفيذ التضحيات أو اختبار المشاعر بشتى أنواعها، مجرد جسد ما عاد

يختلف كثيراً عن الحيوان إذ أن عقله وشعوره قد فسدا بكل ما فيهما، لكنه خُلق على هيئة إنسان وحسب!

إن من قالوا أن ما يحدث في العالم المعاصر من تقدم علمي يشكل مدخلاً إلى المرحلة القادمة من تطور الجنس البشري، ولا بد أن من قالوا هذا قد ماتوا أو أنهم لا يستطيعون الاعتراف أنهم على خطأ، إن ما حدث شكل انحداراً لنا إلى مراحل أدنى، ولكننا لا نشعر...نحن حقاً لا نشعر أو نأبه، نحن لا شيء!

أتساءل إن كان الرب سيحاسبنا باعتبار أننا بشر لدينا عقول، لا أشكك في حكمه بالطبع إذ أن الذنب ليس ذنبه وإنما ذنبنا؛ نحن من فعلنا هذا بأنفسنا، لكني أعلم أنه يرى ما يحدث، ربما يسخر مما أوصلنا أنفسنا إليه وأننا غيرنا طبيعتنا التي خلقنا بها، وربما يشفق علينا ويدبر لنا نجاة ما ربما تأتي عاجلاً أم آجلاً، أياً كان ما يفعله فله الحق، أنا حقاً لا أشكك في الرب وإنما أشكك في حقنا بأن ندعو أنفسنا بشراً، وأظن أنها مسألة تستحق إعادة التفكير ملياً فيها!

وأستدل لك على صعوبة الخروج من أمراض العصر التي نعانيها بنفسي؛ فقد أسلفتُ لك الذكر أني متعدد الاهتمامات والمواهب بعيداً عن عملي السابق، أتظن أن أياً منها انتشلني مما أقاسيه؟

أنت تعرف الإجابة!

على أية حال، هذه الثرثرة بصراحة ليست جزءاً رئيسياً من القصة؛ إذ أن ما أتحدث عنه هو حالنا البديهي جداً قبل أن يحدث لنا حتى ما حدث، ولم تتغير الأمور هنا كثيراً عما كانت عليه قبل غياب الألوان، وإنما أصبحت أسوأ، لكني لا أريدك أن تعتبر ما تطالعه مما أكتب مجرد قصة يسردها شخص فقد مضمونه، هذه السطور أيضاً فرصتي لأقول كلاماً كثيراً لا يسمعه أحد غيري عندما أتفوه به وأنا أحدث نفسي كالمجنون؛ فنعتبرها إذن فرصة لي لأتواصل مع العالم وأنقل لمن

يقرأ معاناتي؛ لربما تجد نفسك بين سطوري تلك، ربما لن نجد حلاً لكننا نعلم على الأقل أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، وأن معاناتنا ليست مميزة أو حكراً علينا، ولا أدري ما إن كان هذا الشعور جيداً أم لا...لكنه بالنسبة إلي "مريح".

بالعودة إلى الحكاية، فما حدث أني شكرت نبيل على صنيعه، وأعلمته بعدها بنيتي في النزول إلى الشوارع بنفسي للتحري مجدداً؛ لعلي أكتشف أموراً جديدة تشكل فارقاً في تحقيقنا الذي لا أعلم كيف له أن يبدأ أو ينتهي، وربما يكون قيامي به مجرد تكفير عن ذنب السكوت على ما حدث والاكتفاء بالتنظير على الغير أو ركض مجنون وراء سراب يفترض أنه إجابة سؤال تنقذني من السقوط في هوة الجنون، كل ما أعرفه أن الأمر كان شبه عشوائي!

وبالفعل نزلت أتجول بنفسي، أراقب الناس وأستمع إلى أحاديثهم، وأسألهم أسئلة تبدو عشوائية لكنها تصيب هدفاً أضمره بداخلي، إن العالم يحوي مجموعة ضخمة من القصص وليس الناس وحسب، التعدادات السكانية تتعامل مع البشر كأنهم أرقام لا أرواح وأناس لهم حكاياتهم ومغامراتهم ولحظات سعادتهم أو مآسيهم، ولكني كنت أنتقل من مرحلة الأنانية التي تجعلني أظن أن قصتي هي الأهم والأكثر إثارة في العالم، وأركز مع قصص الآخرين لأكون صورة كاملة عن حالهم، وفي البداية وجدت كما وجد نبيل، لكني لم أجد هذا فقط تلك المرة...!

لاحظت رجلاً يسير في الشارع، لن أقول أنه مجنون ولكن أظنه كان تحت تأثير رعب شديد ومشاعر أخرى، كان يسير ويتحدث بنبرة تعلو حيناً وتنخفض حيناً وقد امتزجت بدموعه المنهمرة جاعلة منظره مثيراً للشفقة أكثر: "أحقاً لا تفهمون الأمر حتى الآن؟ ألا يمكن لعقولكم العبقرية تلك أن تستنتج أننا نُعَاقَبُ على خ طايا عدة ارتكبناها في حق أنفسنا وحق غيرنا؟ أظننتم حقاً أن الرب لن يحرك ساكناً؟!".

كان يهذي هكذا، في نظر الناس وليس في نظري، ولكن لديه وجهة نظر، كم من الخطايا التي ارتكبناها يمكن أن نعدها منذ أتينا إلى الأرض وإلى أن نرحل ونخلص الكون من شرنا؟! إن كنا نحن لا نستطيع الحصر فالرب يرى ويستطيع، وليس من المنطقي أبداً أن يسكت على كل هذا، وكنت وقتئذ متسامحاً مع فكرة ألا يكون لهذا الأمر حقاً سبب دنيوي، وأن يكون كله حقاً غضباً من الرب بدأ من عندنا كتحذير، والبشر بالطبع يمارسون عادتهم الطبيعية بالتأقلم وتجاهل الإشارات!

ا لذنب حقاً ذنبنا، الرب بريء، لا أظن أن من يفهم الطبيعة البشرية جيداً يستطيع إنكار أننا بداية كل هذا الفساد!

وما لاحظته أيضاً كان متعلقاً بالشباب؛ فيبدو أنهم أصبحوا عدوانيين أكثر من ذي قبله تجاه الحياة بما فيها، وتجاه أهليهم وأنظمة حياتهم، ونعلم بالطبع أن هذه العدوانية وهذا الغضب وهذا الوحشية الكامنة داخلهم نتائج واضحة للقهر والبؤس الذي عانوه، إني أقارب الأربعين من عمري الآن ولا زلت أؤمن أن الشباب يموت بالبطيء في هذا العصر؛ هو هدف الشركات الرأسمالية التي تسرق وعيه ووجوده وتجعله ترساً في عجلاتها الدائرة، وهو الذي تناله أقوى ضربات الأنظمة الديكتاتورية التي تقهره وتقيد أحلامه وتستعبده، وكذلك ضحية لأهل متسلطين لا يعلمون معنى التربية ولا معنى أن يكون لديك استعداد للتضحية بأنانيتك وعبادتك لذاتك كي توجد لابنك شخصية خاصة به وتعلمه كيف له أن ينقذ العالم بها، أو يموت وهو يحاول على الأقل، إنما بدلاً من ذلك يعلمونه كراهية العالم ويقسون عليه لمجرد أنهم يريدون رؤيته نسخة أفضل منهم، هذه الأنانية لا تتغير على مر التاريخ ولن تتغير؛ ولذا فإني أؤمن أن سَورَة غضب الشباب تلك مبررة، ومدمرة، وقد تقتلنا جميعاً يوماً ما، وسنكون قد استحققنا ذلك عندئذ!

وتابعت تجولي وأنا أفعل ما أفعل، وكان اليوم يحمل لي مفاجأة رائعة لم أك مستعداً بعد لها...

فبينما كنت أسير على جانب شارع نظرت فجأة بعفوية إلى جانب الشارع المقابل؛ فرأيتها!

ولم تكن قد خرجت بعد من ذهني، وكانت لا تزال موضوعاً هاماً ضمن ما أحادث به نفسي في لياليّ...!

٦

أخبرتكم سلفاً أني لا أشعر كما يشعر الشخص الطبيعي منكم، وإنما أعيش حياتي بمحاولات لمحاكاة المشاعر، والتي أصبحت تأتي من وراء قلبي كأنها تزيح صخوراً للهروب من مكان ما، لكن الأمر يختلف إثر رؤيتها؛ فقد كنت لجزء من الثانية على الأقل أشعر، أياً كان الشعور ولكني كنت أعلم في تلك اللحظات أن رؤيتها تحرك قلبي!

حنين؛ زوجتي السابقة، تبدو أجمل من الحال التي تركتها عليه، هي الجمال الوحيد في هذا العالم القبيح واللون في البلدة الباهتة، يأبى عقلي إلا أن يصورها لي بالألوان الزاهية رغم أن بصري يعارضه، وسر جمالها أنها لم تعد معي!

ألوم نفسي على أمور عديدة، وأعلم أن العودة بالزمن لتغيير كل هذا ليس اختياراً مطروحاً، لكني حقاً أحببتها بل تطرفت في حبها وكدت أجن بها، ولم تبادلني هي أقل من ذلك حينما كنا سوياً، ولكن عندما حدث ما حدث وتحول التطرف في الحب إلى تطرف في الكراهية ما عاد يطيق أحد منا النظر في وجه الآخر، ولم يذكرني أني أحبها إلا فراقها، ولا أعلم جانبها من الأمر ولا ألومها إن كانت قد كرهتني، لكني لن أستطيع أن أكرهها أبداً أو أنزعها من قلبي وأجتزها من ذكرياتي، حبي لها وألم فراقنا محتومان بداخلي، لا أستطيع أبداً إحداث أي تغيير فيهما!

كانت جالسة على مقهي، بدا أنها تنتظر أحداً لم يكن أنا، وستتحدث معه وهو ليس أنا، وستبتسم له وهو ليس أنا، وستفتح شفتيها العذبتين لتنطق بكلام عذب بصوتها العذب فيسمعه أحد لن يكون أنا، ربما صديقة لها أو حبيب جديد، لا أعرف...وبأية حال لم يكن من حقي أن أنتظر حتى بداعي الفضول لأتأكد من كونها ستقابل أحداً أو أنها تجلس وحدها هنا وحسب تحادث نفسها، ونفسها للأسف ليس أنا، لكن يوماً ما كانت نفسها حقاً أنا وكانت نفسي هي، ولم يفرقنا سوى انفصال بدنينا!

حثتني رؤيتها في تلك اللحظات على الإسراع فيما أنوي فعله؛ فإن استطعتُ حقاً كشف سر اختفاء الألوان وربما إيجاد حل له؛ سترى حنين الألوان مجدداً، ربما شعرت وقتئذ أن هذا كل ما يهمني!

وفجأة وجدتها تلتفت؛ فالتقت عيوننا، وكبحت دموعي بقوة بينما لاحظت أنها فغرت فاها قليلاً وحسب، ولم أرد أن أزعجها أكثر من ذلك وفعلت ما ندمت أني لم أفعله قبل بضع دقائق؛ رحلت مبتعداً عن الشارع، وقد تمنيت ألا تثير رؤيتها لي إزعاجاً لها وتعكيراً لمزاجها، والأهم ألا تخلف ألماً مجدداً في روحها...رحلت وحسب، رحلت!

ودعونا الآن ننهي حديثنا عنها وننتقل إلى ما تلا الحدث، فقد رأيت أخيراً ما كنت أبحث عنه منذ خرجت: أمر غريب!

رأيت شاباً يرتدي نظارات شمسية وحقيبة ظهر صغيرة، ويعبث بشيء ما في يده، وعندما ركزت على يده تأكدت أنه يعبث بمدية؛ وكان مظهره الغريب هذا كافياً لجعلي أتبعه، ولكن أياً من كان فكيف له أن يسير وسط الناس بهذه الجرأة؟!

ظللت أتبعه بحذر بينما أحاول أن أكون شبحاً وأنا أفعل لئلا يشك في شيء أو يغير مساره الذي لا أعرفه أصلاً، وبعد بضع دقائق وصلنا إلى مكان شبه خال

ومكشوف؛ فأصبح من العسير علي الاختباء للأسف، لكن من حسن حظي أنه لم يلتفت وراءه حتى قبل أن يدخل باحة ركن سيارات صغيرة في المكان، وهذا لا ينبئ أنه محترف بأي حال من الأحوال!

انتظرت حتى توارى عن ناظري ودخل الباحة، ثم تبعته بخطوات بطيئة هادئة واختبأت خلف سيارة بالداخل وأنا أرهف السمع إلى ما يحدث بالداخل؛
فسمعت أصوات قطع معدنية يصحبها صرير يوحي أه يحك هذه القطع ببعضها أو يحاول تركيبها معاً؛ وهنا لم أستطع كبح فضولي وقلقي أكثر من ذلك فخرجت لأواجهه، وعندما أصبحت وراءه ببضع ارتكبت خطأً سخيفاً؛ فتحدثت عالياً إليه قبل أن أنظر بتركيز إلى ماهية هذه القطع والتي خبأها هو مسرعاً في حقيبته بعد أن أثار حواسه صوتي وأنا أقول: "ألا تظن أنك قد كبرت على ألعاب التركيب تلك؟!"

رد وهو ينظر إلي بتحفز وغضب وقد أشهر سكينه: "ابتعد أياً من كنت لئلا تتأذى!"

شهرت مسدسي بسرعة وأنا أرد ساخراً: "من تظنه سيتأذى حقاً؟!"

ازدرد لعابه وقد بدا القلق على ملامحه، وطمأنني هذا لبضع ثوان أنني مسيطر على الموقف، ورد بصعوبة: "من أنت؟! وكيف وجدتني هنا؟!"

- يا لك من مبتدئ! من ذا الذي ينوي فعل أمر ما بعيداً عن أعين الناس ولا ينظر وراءه حتى، أهو غرور أم أنها حقاً حماقة؟! في كلتا الحالتين أنا لا آبه أيها الشاب، افتح حقيبتك وأرني محتوياتها على الفور!

=اللعنة...أنت ضابط!

-واو! يا لك من لماح! لا ريب أنك كنت في مدارس المتفوقين بعقليتك الفذة تلك!

=وماذا لو لم تكن كذلك؟! أمن الحتمي أن يكون كل حامل مسدس شرطياً؟!

- اسمع يا بني، دعنا لا نضيع وقتاً أكثر من ذلك، افتح الحقيبة لئلا أضطر إلى استخدام أساليب لن تحبها!

=هه! أنت إذن من الشرطة التي لا تأبه لشيء مما يحدث ولا تفعل شيئاً سوى مضايقة من لا يستحقون المضايقة، أنتم أضعف مما تظنون!

وكان علي أن أكتم كراهيتي لهذا الجهاز اللعين لئلا أعطيه ميزة تفوق علي أو أدعه يستفزني فأرتكب غلطة أخرى تضيع كل شيء؛ فرددت: "ربما، لكن لا شيء مما قلته يغير حقيقة أني حامل المسدس!"

وجدته فجأة يبتسم بخبث وهو يرد: "لكنك لن تقتلني، وهذه نقطة ضعف أحييك عليها!"

وقبل أن يكمل جملته رمى مديته نحوي؛ فتحركت جانباً بسرعة لأتفاداها، ورأيته يركض هارباً مني فشرعت أطارده بأقصى سرعتي لئلا يفلت؛ فأياً من كان هذا الشاب لا بد أنه يخفي سراً هاماً، ولم أهتم في تلك اللحظة ما إن كان هذا السر مرتبطاً بما يحدث أم لا، كل ما علمته أنه يجب على الإمساك به!

وبينما كنت أركض خلفه وهو يراوغني في الباحة معتمداً على السيارات فيها؛ وجهت حديثي له: "ما الذي يجعلك متأكداً أنك لن تقتلني؟!"

رد ساخراً وهو يركض بصوت لا يبدو صاحبه أن الركض قد أنهكه على الإطلاق: "لن تفعل لئلا تواجه مشاكل في مهنتك وحسب وتضطر لإخفائي، ليس من فرط طيبتك بالطبع!"

-يبدو أن هنالك سوء تفاهم بيننا لا أرغب أن نحله بأسلوب غير ودي!

=وأنا أريدك أن تفعل، كل ما ترتكبونه من أمور غير ودية يصب في مصلحة قضيتنا!

-قضية؟!

=لن يستيقظ المجتمع بالود، سيتغير كل هذا!

-كل ما سيتغير الآن هو أنني سأؤذيك إن لم تتوقف!

=سيكون الأمر صعباً إلى أن تمسك بي، إن كنت تستطيع!

وكان صادقاً في تفاخره بسرعته؛ إذ أني، بعدما قادتني مطاردته إلى خارج المنزل، تابعت مطاردته بأقصى ما استطعت من جهد وسرعة، لكن اللعين كان سريعاً وحمته نظارته من أشعة الشمس التي جعلت رؤيتي ضبابية بعض الشيء وأفقدتني تركيزي، واستطاع أن يختفي مني، بمجرد أن أعادتنا المطاردة إلى الشوارع، في وسط الحشود الذين أثار فزعهم مطاردتي له، والتي انتهت حقاً بسرعة قبل أن تبدأ حتى رغم أني كدت أفقد أنفاسي فيها، ربما لا يكون محترفاً لكن ما كان علي أن أستهين به!

لم أفكر في إخبار زملائي من الشرطة بما حدث بالطبع لئلا يفسد غبائهم الأمر، وقررت أن أعود وأطلب المساعدة من نبيل مجدداً ليتحرى عن هذا الشاب الغامض؛ فوجهي أصبح مكشوفاً له وعلي أن أختفي لبعض الوقت.

لكن أياً من كان هذا الشاب فعلي أن أمسك به، لا أهتم الآن لم بدأت تحقيقي الشخصي حتى، لقد أصبح هو هدفي الآن!

بالمناسبة قبل أن أنهي هذه المذكرة، اعذروا فوضى الأزمنة التي أسرد بها الأحداث، أعلم أنها خطأ سردي مزعج لكني أقص الحدث تارة وكأني أعيشه مجدداً فتجدني

أكتب بزمن المضارع، وأقصه كحدث ماض تارة أخرى، سامحني إن كان هذا يثير إزعاجك، سأحاول تحسينه في الصفحات المقبلة.

وإن فشلت فسامحني أيضاً واقرأ بهدوء دون تصيد للأخطاء؛ أنا لست بصدد إرسال رواية إلى دار نشر هنا، هذه مجرد مذكرات متسلسلة أسرد فيها أحداثاً شخصية، اتفقنا؟!

محمد تامر

نوار

الفصل الثالث

كشف المستور

٧

أتى دور نبيل ليخدمني مجدداً، ولم أتوقع منه تقصيراً أو مماطلة ولم يحدث منه بالفعل أي منهما؛ فقد أسرع بتلبية طلبي وأتى لرؤيتي؛ فحكيت له ما حدث باختصار وكيف أن معتوهاً بنظارة شمسية راوغني وأفلت مني، وأني وجدت الشمبانزي الجديد الذي سيعوض مطاردتي له؛ فضحك وهو يسألني عن دوره الذي سيؤديه والذي طلبته من أجله؛ فأجبته أنه سينزل إلى الشوارع مجدداً ويتحرى لي عن هذا الشاب الغامض وأعطيته أوصافه بالطبع بقدر ما تذكرت – ومن حسن الحظ أني تذكرت أموراً كثيرة أهم من النظارة الشمسية – وكان هذا كل شيء قبل أن يرحل واضطر لانتظاره مجدداً ليعود إلي بأخبار جديدة.

والانتظار صعب، والصبر ليس فضيلة يسهل تعلمها، رغم ذلك فهي تقريباً الفضيلة الأقوى التي يمكنها جعلك منيعاً ضد أفاعيل الحياة؛ لأني أؤمن أن نسبة كبيرة من آلامنا لا نقدر على مجابهتها لأننا لا نستطيع الصبر عليها، و...

ومر يومان قبل أن يعود نبيل، وهذه المرة عاد بأفضل مما توقعت حتى!

فقد اتضح أن هذا الشاب ليس محترفاً على الإطلاق بحق، وإنما لم يكن أحد قبلي يأبه لأمره وحسب، وهو، حسب كلام نبيل، شاب متمرد قاس يسيء معاملة والده، بل وكثيراً ما يتحدث عن نيته لقتله، وحاله الذي رأيته عليه ليس جديداً سوى علي؛ فكثيراً ما يراه الناس يتجول بنظارته وحقيبته تلك ولكنهم بالطبع لا

يسألونه إذ أن الأمر لم يبد غريباً بالنسبة لهم، وأظنني كنت سأقول مثلهم لو أني لم ألمح المدية في يده وألحظ أنه كان يفعل شيئاً ما لا يود أن يراه أحد، شيء لو أني لم أتعجل وأتصرف بحماقة لكنت اكتشفته!

ولم أضيع لحظة بالطبع، وطلبت من نبيل أن يأتي معي لنذهب إلى منزله ونقرب الزاوية أكثر؛ فوافق دون أدنى تردد.

ليتني عرفتك في أيام عملي يا نبيل؛ كنت لتوفر علي عناء كبيراً!

انطلقنا مسرعين بالفعل، وعندما وصلنا طرقت الباب وانتظرنا الرد، وبعد لحظات سمعنا وقع أقدام يقترب من الباب ويبتعد مجدداً بسرعة؛ فنظرت إلى نبيل لأجده يشاركني قلقي الذي زاد بعد أن سمعنا ضجة تأتي من الداخل وأصوات شجار تبدلت بعد ثوان إلى أصوات تطلب النجدة؛ وهنا زادت حدة توتري بالطبع فركلت الباب بقدمي بقوة محطماً إياه ثم دلفت إلى الداخل وتوجهت بسرعة نحو مصدر الأصوات؛ فوجدت الشاب – دون نظارته الشمسية هذه المرة – وقد احتجز رجلاً استنتجت بسهولة أنه والده كدرع بشري ووضع سكيناً على عنقه؛ فشهرت مسدسي بحركة غريزية محذراً إياه فقال ساخراً موجهاً كلامه إلي: "أرني الآن كيف ستجرؤ على لمسي أو إطلاق النار علي، إن اقتربت نحرت عنقه!"

سهل جداً أن تتخيل مقدار التوتر الذي ساد المكان بالطبع، الأب يكاد قلبه ينفجر من شدة الرعب وقد ارتسمت على وجهه نظرات أدركت بخبرتي سريعاً أنها نظرات بها نوع من الندم، ووقف نبيل متحفزاً لا يدري ما يفعل لكن التوتر كان بادياً على وجهه بالطبع، ولم يكن توتري بأخف منهم على الإطلاق بل وكان توتراً مركباً؛ فجهلي بالشاب ووالده وسبب ما يحدث وخوفي من الفشل في إنقاذ الرجل وترقبي لكل حركة قد يقوم بها هذا المجنون، كل هذه كانت لتفجر عقلي لو أنني لم أكن متعوداً على التعامل مع مواقف كتلك من قبل، ومع ذلك لا أنكر أنه قد

أصابني توتر وقلق شديدين نتيجة بعدي عن الميدان لوقت طويل، ولكي أكسر حالة التوتر الجماعي تلك ألقيت في وجهه الأسئلة البديهية لموقف مثل هذا: "من أنت أيها الشاب وما حكايتك، وما الذي كنت تفعله منذ بضعة أيام في الباحة، وكيف تجرؤ على فعل هذا بوالدك؟!"

أتى رد الشاب ساخراً كما توقعت: "تبدو ذكياً جداً لدرجة أنك ربما تستطيع حل هذه الأسئلة بنفسك!"

حاولت تهدئة نبرتي: "اسمع يا بني، لا أريد لأحد أن يتأذى، ولا أعرفك حتى لأقرر ما إن كان يجب أن أقف في صفك أم لا، لكن ما تفعله لا يبشر أنك شخص صالح!"

=تقف في صفي؟! لا أحد يقف في صفي طوال حياتي، من أنت لتفعل شيئاً مختلفاً؟!

-لماذا؟ لماذا قد لا يود أحد أن يقف في صفك؟!

=لأن هذا ما تريدوننا أن نفعله وأن نكونه؛ خدم لأحلامكم ورغباتكم!

وإثر كلماته تلك شعرت أن جزءاً ما بداخلي قد تفهم من نبرة حديثه شيئاً رفض توضيحه لعقلي؛ فوجدتني تلقائياً قد وضعت مسدسي على الأرض بجانبي وقلت له بهدوء تام هذه المرة: "أنا لست هنا لأكون ضدك وإنما أريد أن أنصر الحق دون أن يتأذى أحد، يبدو أنك تريد قول شيء ما لا يستمع إليه أحد أو يأبه له، أليس كذلك؟!"

كأن قوة خفية داخلي جعلتني أسأل هذا السؤال!

ولاحظت أنه قد بدأ يهدأ هو الآخر وهو يرد: "لا شك أنك ضابط، بأية حال فهذا لا يخيفني..."

-لم أقل أني هنا لإخافتك أو ظلمك!

=لكن أليس هذا ما تفعلونه دائماً؟!

-الظلم حتمي في كل جزء من أجزاء الحياة!

=هه! غريب أنك تقول هذا، لكن يبدو أنك مختلف بعض الشيء عنهم!

- تحدث يا بني، لا نريد أن نضيع وقتاً، وأفلت والدك أرجوك.

=لكي تتعاونوا ضدي وتكبلوني ب...

-تحدث إذن ولا تفلته، لكن أسرع، لا أحب هذه الأجواء وتوترها!

=إن هذا الرجل الذي يفترض أنه والدي قد جعلني أحيا أسوأ أيام حياتي؛ فما وجدته أبداً بجانبي عندما احتجت إليه، ولا وجدته لي مشجعاً ومعيناً لي على مواجهة زمني...

اعترض الرجل من بين دموع خوفه: "كيف لك أن تقول عني هذا وقد أنفقت عليك..."

احمر وجه الشاب وهو يرد بغضب هادر أعادنا لنقطة البداية: "إياك والحديث عن أموالك اللعينة تلك! كل ما أردته مني أن أكون ظلاً لك ولوجودك الحقير على الأرض، قهرتني وأذللتني ومنعت عني أحلامي وسعادتي، وكثيراً ما نهرتني وآذيتني نتيجة لكل صغيرة وكبيرة، وفعلت بي ما لن أحيط به كله مهما تحدثت، والآن انظر إليك وأنت ضعيف ذليل مهان على بعد خطوة واحدة من الموت ولا زلت تنكر..."

قطعت حديثهما وقد شعرت حينئذ أني فهمت الشاب جيداً بكلمات وجهتها إلى الأب: "أنت لست بريئاً من هذا، هذه القصة تتكرر في كثير من البيوت كل يوم بسبب أمثالك، أنت من جعلته هكذا!"

وقبل أن يعترض بكلمة واحدة منعته بإشارة من يدي، ثم وجهت كلامي إلى الشاب سائلاً إياه عن اسمه ؛ فأجاب أن اسمه عزيزاً؛ فأمرته بهدوء: "أفلت والدك يا عزيز، أنت تعلم أني لن أفعل شيئاً لذا أرجوك أن تفلته بسرعة لنكمل حديثنا!"

وهذه المرة استجاب الشاب لأمري ببطء وأفلت والده، وعندها أشرت له – أي والده – ليخرج من الغرفة التي كنا فيها، وبالفعل لم يعد سوانا نحن الثلاثة بالداخل؛ فسألته: "لم تخبرني بعد ما أمر الحقيبة وماذا كنت تفعل في الباحة!"

تنفس بعمق وأجبني برد غير شاف ومتوقع: "لا أستطيع إخبارك، وتعاطفك المزعوم معي لن يجعلني أتحدث بالمناسبة لئلا تظن نفسك ذكياً!"

- ومن قال أنه مزعوم يا عزيز؟! أما زلت تظنني هكذا حقاً؟! أتظن أن كوني من الشرطة يمنعني من التعاطف مع مأساتك والشعور بها، أو من إدراك أن الجهل المتوارث في مجتمعاتنا يخرج لنا آباء أسوأ من والدك هذا كل يوم؟!

=أتعلم؟ أنت حقاً لست مثلهم وهذا غريب!

- ألهذه الدرجة؟! أصبح وجود من يتفهمك ويتعاطف معك غريباً عليك؟!

=أنت تعلم أني لست الوحيد الذي يعاني من هذا، جيلنا بالكامل قد قهره كل شيء من حوله؛ أهله ورفاقه وحكومات بلاده والمؤثرات المعنوية الخارجية التي نتعرض لها، لقد خلقنا لنُحطم ليس إلا، ولنحيا حياة لا نكهة لها أو لون!

-ليتني أستطيع فعل شيء من أجلكم...

=كلا، لا بأس، يكفي أنك فهمتني!

- أما زلت لن تخبرني شيئاً عن يوم الباحة إذن أو تلمح للأمر حتى؟ أهناك شيء يمنعك من الحديث؟ أنا لا أحب أن أنام بأسئلة تؤرقني وتحيرني يا عزيز، ولا بد أنك تفهم شعوري!

=...أنا حقاً لا أستطيع!

-أنت تعلم أني لن أخرج من هنا دون إجابات!

=وأنت تعلم أني لن أنطق بكلمة مهما تفعل أو تقول!

تنهدت بقوة وساد الصمت بضع لحظات تبادلنا فيها نظرات متحدية، وفكرت خلالها فيما قال وحللت كلامه سريعاً؛ وقادني فكري إلى فرضية غريبة استبعدت أن تكون صحيحة، لكني كسرت الصمت بطرحها أمامه بأية حال: "ألك علاقة باختفاء الألوان يا عزيز؟! واعتبر هذا سؤالاً إن لم أحصل على إجابة كافية له فإني سأتخذ معك إجراء لن تحبه!"

ولدهشتي؛ تغيرت ملامحه وكستها دهشة غريبة؛ فضحكت وأنا لا أصدق حقاً أن فرضيتي كانت صائبة، ثم غمزت سريعاً لنبيل ففهمني وأسرع ليمسك به بقوة من الخلف متجاهلاً مقاومته، ثم انحنيت لألتقط مسدسي مجدداً وأقترب منه قائلاً: "تحدث يا عزيز، تحدث لأني أريد للأحداث القادمة أن تكون حقاً في صالحك!"

رد غاضباً: "كان علي ألا أثق بأمثالكم حقاً!"

-لكن ما أفعله الآن لا يغير شيئاً مما قلته يا عزيز؛ ما زلت مؤمناً بكل ما نطق به لساني أمامك، لكن عليك أن تعلم أني أفعل كل هذا الآن لمصلحتك؛ إن الاعتراف لي سيكون أهون بكثير من الاعتراف لغيري، لا أريد أن نصل لهذه المرحلة!

=لن أفعل، اقتلني إن شئت، أخمد صوتي كما أخمدتم أصواتاً كثيرة من قبلي، لا يهمني!

-أنا لا أريد إخماد صوتك أيها الأحمق، أعطني أي شيء أسجله كاعتراف، تحدث أيها الغبي ولو بالتلميحات!

=...لن تستطيعوا قهرنا إلى الأبد، نحن نعلم كيف سنوقظ المجتمع من سباته العميق...

-لكني لا أرى أن حرمان المجتمع من الألوان قد جعله يستيقظ يا عزيز، وإنما جعلك ببساطة متهماً في جريمة إلحاق الضرر بأكثر من ألف مواطن!

=لا بأس، إننا نخطط لزيادة الضغط عليهم في الأيام المقبلة بطريقتنا!

وهنا شعرت أني سمعت كل ما أحتاج إلى سماعه، وشعرت أني حللت ثلث اللغز، وحصلت على إجابة مرضية بعض الشيء لسؤال "لماذا"، وتبقت لي إجابتين لسؤالي "من" و"كيف"؛ فوجهت سؤالي له: "أود إذن أن أقابل زعيمكم هذا الذي جمعكم على هذه الأفكار، أنا متأكد أننا سنجد موضوعات كثيرة نناقشها سوياً، وأرجو أن تسرع لأن الأمر حقاً أصبح يشبه الأفلام الأجنبية والروايات!"

بدت على ملامحه الدهشة مجدداً لبضع ثوان، لكنها سرعان ما زالت هذه المرة وهو يرد: "لن أتحدث، افعل ما تريده لكنك تعرف أنك تضيع وقتك معي هنا، في خلال الأيام القادمة ستحدث أمور كان عليها أن تحدث منذ وقت طويل، وسيتغير كل شيء، ولن أتفوه بحرف عن هذا الأمر أيضاً مهما كان ما ستفعله!"

ظللت أحدق في وجهه لبضع ثوان وقد خلا وجهي من التعابير، ثم أمرت نبيلاً أن يفلته، وقلت له بنبرة جادة مخيفة هذه المرة: "أنا بالفعل لن أضيع وقتي معك، وأنت لست لدى الشرطة الآن تُهان وتعذب وتُستجوب بأعنف الأساليب إلا لأنني

أريد ذلك، وآمل ألا أجدك مجدداً في خضم أية أحداث غير سارة، وأياً كان ما تفعله أوقفه، ولا ترفع يدك على أبيك مجدداً لأن ما فعلته ما زال خاطئاً أياً كانت مبرراته، ولا تتهمني أني لا أفهمك أو أشعر بك، لكن هذا الغضب الذي يسوقكم كالبهائم لن يجعلكم تغنمون شيئاً، لقد حذرتك يا عزيز، وفي المرة القادمة لن أكرر تحذيري!"

بدا على وجهه القلق هذه المرة لدرجة أني أشفقت عليه؛ فخرجت ونبيل مسرعين دون أن ننتظر منه رداً، وفي الطريق أخبرت نبيلاً بما فهمته بالضبط؛ إن هوس التقليد لدى الشباب عندما يختلط مع القهر البدني والفكري والنفسي الذي يعانونه يجعلهم يبحثون عن حرية أو انتصار - حتى لو كان زائفاً - بين ثنايا حكايات الأمم السابقة، أو أدب وسينما الثورة؛ والسيناريو البديهي والواضح أن هؤلاء مجموعة من الثوار الشباب تجمعهم صفات ورغبات وأفكار مثل ما قد يُوصف به عزيز، ومن البديهيات السهلة جداً أن لديهم رأس غول يدبر شؤونهم ويفكر نيابة عنهم ويضع خططاً لهم، وبطريقة ما استطاعوا فعل شيء تسبب في ضياع الألوان من المدينة وإصابتنا بعمى الألوان الجماعي هذا، ورغم أني لا أفهم طبيعة ما فعلوه إلا أني أظن أني أدرك رمزية الأبيض والأسود، وتفسيرها سهل لدرجة أني لا أحتاج حتى لتوضيحه، أطلق العنان لخيالك يا عزيزي القارئ!

لكني شرحته لنبيل بالطبع!

بأية حال، انتهت أحداث هذا اليوم بأني، فور عودتي إلى المنزل، طلبت من نبيل أن يراقب الشاب سراً؛ فهو دليلنا الوحيد إلى أن يجد جديد، وأخبرته أيضاً أن يكمل تحريه في الشوارع بدءاً من الغد؛ فما قاله عزيز عن الأمور التي ستحدث قد أثار قلقي الشديد؛ فما الذي قد يفعلونه للضغط علينا كي نسمع صوتهم ونمنحهم حقوقهم أسوأ من إخفائهم الألوان من عالمنا؛ ليجبروننا على رؤيته كما يرونه؟!

الرب وحده يعلم، وربما سيعلم نبيل شيئاً من تحرياته خلال الأيام المقبلة.

سنرى...

سنعلم...

سنفهم...

سنكشف...

٨

في اليوم التالي – حسبما أذكر – راودني حلم عجيب، ومرعب، وصادق!

استيقظت فجأة لأجد نفسي ممداً على الأرض في الشوارع – وكان كل شيء بالأبيض والأسود أيضاً – وعندما قمت سمعت أصوات صراخ؛ صراخ غضب وثورة تارة ورعب وخوف تارة أخرى؛ فتحركت مسرعاً نحو المصدر إلى أن وجدتني في منتصف البلدة، وقد هاج الشباب وماجوا وراحوا يضربون كل شخص ويحطمون كل شيء، ثورة حقيقية لا رادع لها!

وما كان عجيباً أني رأيت أجسادهم تتلاشى وهم يركضون مسرعين ليخربوا أكبر قدر ممكن من أي شيء قابل للتخريب، وتتنوع صرخاتهم المقترنة بتقريرهم لأحلامهم، كأنها مطالب استسلام في حرب ضروس: "لم علي أن أفني ثلث عمري في نظام تعليمي لا أنتفع منه بعلم حقيقي؟ ولم لا يمكنكم ولا يمكن لأهلي تقبلي عندما أنطلق في درب أرتضيه لنفسي إن كان مخالفاً لهواكم؟!"، "لم لا يمكننا مساعدة من يحتاجون المساعدة من خارج بلادنا؟ لم علينا أن ننزوي بأنفسنا في ركن بعيد بينما العالم يضرم فيهم النيران إضراماً يسكت عنه الجميع؟!"، "أين الطبقات الاجتماعية المتوسطة يا ترى؟ أأصبحت البلد حقاً مقسمة إلى أغنياء وفقراء وحسب؟!"، "لم علينا أن نخرج من أوطاننا إن أردنا الحياة؟ لم تعذبنا بلادنا هكذا بذنب حبنا لها؟!"، "لم علينا أن نشاهدكم تقهروننا بصمت بينما إن تفوهنا بمطالبنا أصبحنا في أنظاركم إرهابيين مجرمين ليست لديهم ثقافة حوار؟!"!

وعندما تابعت النظر والتأمل في هذه الفوضى الجميلة حولي؛ رأيت الدماء تسيل منهم بلون أسود قاتم، كأنهم ينزفون ظلاماً يجري في أوصالهم منذ زمن طويل، رغم أن سبب هذا المشهد كان غياب الألوان فقط إلا أنه حمل ألف معنى ومعنى بالنسبة لي!

وعندما عدت أتجول ببصري فيما حولي؛ رأيت حنيناً وقد راح بعضهم يضايقونها؛ وهنا ثارت ثائرتي واشتعل غضبي فدنوت مسرعاً منهم، وقد لاحظت أني أنزف دماً أسود أنا الآخر كلما تحركت خطوة تجاههم، وعندما أصبحت على بعد سنتيمترات منهم وجدت أنهم ثلاثة وحسب؛ فاندفعت نحو أولهم وقد قفزت وسددت إليه لكمة هوائية في وجهه، وعندما لامست قدماي الأرض مجدداً رحت أسدد إليه لكمات قوية متتابعة، ولاحظت أن جسده بدأ يتلاشى مخلفاً غباراً أسود، وقبل أن ألتفت وجدت ثانيهم قد أمسك بي من الخلف بينما وقف الثالث أمامي وقد استعد لضربي؛ فصدمت وجه حاملي بمؤخرة رأسي مرتين بسرعة وقوة جعلته يفلتني ويتقهقر إلى الخلف، ثم تدحرجت جانباً لأتفادى هجمات الثالث، وعندما قمت استللت مسدسي بسرعة وأطلقت النار على ذراعَي وساقَي كل منهما، لكنهما رغم ذلك تبخرا بالكامل، ولكني لم آبه بأية حال إلا بحنين التي عندما التقى بصري بوجهها وجدت عينيها قد اغرورقتا بالدموع وقد بد الخوف والأسى على ملامحها وهي تقول لي غاضبة: "أتود إيذائهم كما آذيتني؟ أتود حقاً تدمير الجميع؟ أما لك من رادع؟!".

أفلتت مسدسي وركضت محاولاً اللحاق بها إذ أنها كانت قد شرعت في الركض بعيداً عني، وخلال ذلك وجدتني أنزف دماً أسود أنا الآخر وأتلاشى بسرعة؛ فزدت سرعتي لأحاول الاقتراب منها حتى قبل أن أتلاشى نهائياً، كانت جميلة حتى وسط كل هذه الفوضى، وكان عقلي قادراً على تجسيد كل ملامحها في أحلامي بدقة، بدت لي كالسلام وسط حرب وفوضى أبديتين، و...

وتلاشيت؛ فاستيقظت فجأة وقد تلاحقت أنفاسي بسرعة، وأخذت أتأمل المكان حولي فوجدت أني في المنزل، ما أجمل العودة إلى الوطن!

لكن لم لا يمكن لك أن تعودي لكونك وطناً لي يا حنين، لم يجب أن يكون وطني هذه الوحدة وهذا الخواء؟!

أعلم أني آذيتكِ وظلمتكِ وأخطأت في حقكِ، لكن...

لكن كان علي أن أفرغ ما بداخلي لئلا أجن؛ فاتصلت بنبيل وطلبت حضوره.

وخلال انتظاري له رحت أفكر في الحلم، لا أدري ما إن كان هذا كابوساً أو حلماً سيئاً يفترض أن أتمنى ألا يتكرر، أم أنه حلم أتوق أنا إلى تحققه لينتصر هؤلاء الشباب المظلومون؛ لأنني حقاً أتفهمهم وأشعر بهم - دعكم مما حدث مع عزيز بالأمس لأن واجبي وضميري فرضا علي ما فعلته - وأظن، رغم عدم إيماني الكامل بالفوضى والأذى، أن من حقهم أن يحرقوا العالم في سبيل إخماد النيران التي أضرمها هو في أرواحهم!

العالم البادئ، والبادئ أظلم!

وبعدها، وعندما وصل نبيل وصعد إلي كان تفكيري قد تحول ثانية إلى حنين؛ فوجدتني أحضر سكيناً من المطبخ وأجلس على الأريكة منتظراً حضوره!

٩

عندما دخل نبيل علي ووجدني ممسكاً بالسكين وجدت التوتر قد غزا ملامحه، ولم أرد أن أثير قلقه أكثر من ذلك فأشرت له بالجلوس وقد أقسمت له أني لن أمسه بسوء، وإنما أريد فقط أن أفرغ بضع كلمات تعتمل في صدري، وقد أنفجر إن لم أستطع تفريغها!

وعندما جلس؛ قلت كل شيء باختصار شديد مستغلاً هذه الشجاعة التي حلت على نفسي فجأة وهي تؤكد لي أن ذكرياتي ليست أقوى مني، وكثير من هذا الهراء: "كنت متزوجاً خلال عملي في سلك التحقيقات قبل تركي الشرطة، كنا نعشق بعضنا حد الجنون...وكان كل منا يرى الآخر معيار الجمال في الكون كله، حتى بعدما مرت أعوام عديدة على زواجنا كنا مواظبَين على عادة شاعرية جداً؛ كان كل منا في لحظات عشوائية تلتهب فيها مشاعره يثبت بصره على الآخر ويظل يتأمله، وعندما كان يدرك الآخر منا ذلك كان يبتسم بخجل ويظل ثابتاً في مكانه إلى أن ينتهي الآخر من تأمله ...لم أعتد ملامحها أبداً، وحتى اللحظة كلما رأيتها ولو صدفة أشعر أنها تتجدد في نظري، وأن جمالها نهر لا ينضب...لا ينضب يا نبيل، كانت بارعة الجمال..."

سكتت لبضع لحظات؛ فسألني نبيل وقد فهمني قبل أن أكمل حتى: "ولم لستما مع بعضكما إذن؟ ما الخلاف الذي دب بينكما؟!"

ابتسمت لنباهته، وتابعت باختصار: "كانت تعمل عن بعد تسليةً لنفسها مع مؤسسة أو شركة ما، وحدث أمر جنوني...اكتشفنا ضلوع هذه الشركة في أنشطة إجرامية خطيرة، ويبدو أن مديرها كان أذكى مما توقعت وقد تحرى عنها جيداً؛ فعندما قابلته لاستجوابه أعلمني أنه يعرف بكوني زوجها، وأعطاني أدلة تفيد بتورطها معهم في هذه الأعمال، ولك أن تتخيل أن غرامي المفرط بها قد تحول في تلك اللحظة إلى كراهية آتية من أعماق الجحيم!

وضعتها ضمن دائرة شكوكي، وأسأت معاملتها...عذبتُ قلبها يا نبيل وخلفت في نفسها جرحاً غائراً، وآذيتها أكثر مما تتخيل، وفي النهاية ظهرت براءتها وأن رئيسها كان قد زيف الأدلة ضدها وضد كثيرين وكثيرات ممن عملوا معه غيرها، ولك أن تتخيل ما شعرت به وقتئذ!

بالطبع انفصلنا يا نبيل، ولا تمر ليلة دون أن يعيد صوتٌ خفي علي هذه الحكاية كل يوم وليلة، وقد نويت حينها الانتحار...كنت أجلس هكذا وأمسك بهذا السكين و..."

وفجأة وجدت دموعي تنهمر رغماً عني وأنا أقول: "لا أسامح نفسي أبداً يا نبيل ولا أسمح لي أن أسامحها حتى! ولا أستطيع تغيير ما حدث رغم أني حاولت كثيراً لكن...لها كامل الحق أن ترفض النظر في وجهي مجدداً حتى، كانت وحيدة مثلي لا أحد لها سواي، واليوم أعلم أنها عادت لتسكن منفردة دون من يؤنسها، لا آبه لكونها غاضبة مني بقدر ما آبه لكونها قد عادت وحيدة؛ قلبها رقيق ولا يتحمل هذا يا نبيل...أخشى عليها الموت حزناً دون أن تجد من يدفنها حتى!"

وإثر جملتي الأخيرة شعرت أن الكلمات تأبى الخروج من فمي من فرط ما ألم بقلبي من الغم؛ فاستدرك نبيل الأمر وتوجه نحوي، وانحنى ليسحب مني السكين ببطء ويبعده عني، ثم جلس بجانبي وراح يربت على كتفي إلى أن هدأت قليلاً

وتابعت حديثي: "أحياناً أشعر أني أفهم عقل من يقرر الانتحار رغم أني لا أحبذه؛ فقد كانت بدايتنا عدماً إلى أن خلقنا الرب، ويبدو أن الحنين إلى هذا العدم يسري في أوصالنا أجمعين لكننا نتجاهله، وعندما تصيبنا المصائب وتتألم قلوبنا فجأة يهيج هذا الحنين بداخلنا، ويتجدد إدراكنا أن العالم ليس لنا..."

اختنقت الكلمات داخلي مجدداً؛ فتحدث نبيل بثقة: "أظنك تحتاج إلى قليل من الإيمان؛ هذا ما يمكنه أن يشفيك!"

نظرت إليه مستفهماً وقد عقدت حاجبيّ؛ فاستطرد: "إيماني علمني التضحية، وعلمني أن أقدس ألمي وألم غيري، علمني أموراً كثيرة لا يسعني ذكرها كلها، لكن أهم ما علمني إياه حقاً أن أكره الدنيا، وألا أنتظر منها شيئاً على الإطلاق، ربما أكون لصاً لكني أكره كوني كذلك وأصارع نفسي كل يوم لئلا أكونه، والأهم أن إيماني منحني قدرة على مسامحة نفسي حتى لو كنت سأكرر خطاياي كل يوم، ربنا يتوب ويسامح ويصفح، وأحب كلماته لأنها مطمئنة ومتفهمة للبشر وأهون على قلوبهم من أحكامهم القاسية على أنفسهم، رغم أنه يعلمنا حب أنفسنا والصفح عنها إلا أننا نقسو عليها بل ونود إزهاقها!"

ليتني عرفتك منذ وقت طويل يا نبيل!

سكت قليلاً قبل أن يختم قوله: "عندما ننتهي مما نفعله يا سيدي، وإن كنت لا تزال تعلم أين هي، سأخوض معك محاولة جديدة لطلب السماح منها، أعلم أنك حاولت كثيراً بلا شك لكن لا بأس بإعادة المحاولة...مع قليل من الإيمان!".

لا أنكر أن كلامه طمأنني وبث في بعض الأمل، ولم أحتج مهلة تفكير لأتفق معه؛ ربما ما ينقصني حقاً قدرٌ من الإيمان، ولا أخجل من اعترافي أني تعلمته من نبيل!

إني بالطبع أؤمن بالرب، لكن ليس بالفهم الصحيح أو القدر الذي يعينني على مجابهة نوائب الدهر، لكن نبيلاً صحح لي كل هذا في ذلك اليوم، ووجدت نفسي أرد عليه وقد هدأت أكثر: "كلامك أحدث في نفسي أثراً عظيماً لن أنساه لك، وسنكرر الحديث عن هذا بالفعل عندما ننتهي من هذا الأمر كما اتفقنا."

ابتسم نبيل برضا وهو يربت على كتفي مجدداً ويسألني عن خطوتنا التالية؛ فأجبته وقد عاد فكري لينشغل بمعضلتنا الرئيسية: "قلت لك أن تراقب عزيزاً..."

=ولم يفعل شيئاً بكل صدق، ويبدو أنه سيتخذ حذره منا يا سيدي ويتوقع أننا قد نراقبه؛ أرى أن مراقبته إذن لا جدوى منها يا سيدي.

-أنت محق يا نبيل، وإذن علينا أن نسير وراء دليلنا الوحيد الذي تفوه عزيز به؛ ما قال أنه سيحدث خلال الأيام المقبلة.

=وإذن ماذا سيحدث يا سيدي؟

- ستنزل إلى الشوارع مجدداً وتحاول استخراج أية معلومات مفيدة، أعلم أني أرهقتك بهذا الطلب...

=أتشرف بمساعدتك يا سيدي، بشرط ألا أسمعك تقول هذا مجدداً!

وجدتني ابتسم، ثم قمت لأعانقه!

محمد تامر

نوار

الفصل الرابع

دخانُ أرواحٍ تحترقِ

١٠

خلال الأيام التي تلت آخر حدث سردته، اشتعل شباب المدينة غضباً بصورة مرعبة ما زال عقلي لم يستوعبها حتى لحظة كتابتي لهذه الكلمات!

فقد بدأ الأمر بما اكتشفه نبيل عن عمليات الانتحار التي بدأ يسمع عنها خلال تحرياته؛ فقررت أن أنزل إلى الشارع معه لأفهم أكثر؛ فوجدنا أن نسب الانتحار ارتفعت في المدينة بنسبة مخيفة والمشترك بينها كلها أن من قاموا بها شباب، ومعظمهم قتلوا عائلاتهم قبل تنفيذها!

علمت أن هذا ما حذر منه عزيز – الذي وجدته ضمن من انتحروا بالمناسبة بعد أن قتل والده، ولا تعليق لدي سوى أن الوالد استحق ذلك، والشاب كان أهوجاً وغبياً وأظنه استحق العدم أيضاً كونه لم يقدر وجوده ووجود غيره – ولكني أعترف أن كل هذا قد خالف توقعاتي، بدا الأمر وكأن الشباب قد ارتكبوا في حق أنفسهم الجيل الذي يسبقهم مذبحة جماعية، ولكن لماذا؟!

ما الذي قد يغيره هذا، وأي نوع من الثورة تلك الأمور المخيفة التي يفعلونها؟!

وأذكر أن أموراً عدة حصلت خلال تلك الأيام، ولكني، ورغم علمكم أني أهوى الاسترسال والثرثرة في قص حكايتي، سأكتفي بالاختصار دون كثير من التفاصيل؛ لأن ما رأيته كان فظيعاً وأنا لا أبالغ، أفظع من أن أكتبه أو يقرأه أو يتخيله أحد!

الجزء الذي أود قصه من أحداث هذه الأيام السوداء عليكم، هو ختامها، فقد توصلت أنا ونبيل بعد جولات وأسئلة وكثير من المراقبة والأساليب الأخرى إلى أحد الذين عزموا على الانتحار، وعندما كنا مستعدَين أخبرت نبيلاً أن ذنب هؤلاء الذين أضاعوا حيواتهم بأيديهم يثقلني، وأني غاضب بشدة من تجاهل الشرطة لما يحدث رغم أنه سبب رعباً مدوياً في البلدة وأن كل ما فعلوه إصدارهم أمراً لكل المقيمين بتسليم أي شاب يبدي نية الانتحار، نعم، هذا ما حدث، هذا ما فعله جهاز شرطتنا الحبيب!

لم يكفهم دعمهم لأنظمة حكم قهرت الشباب وجعلتهم كالموتى السائرين بل جعلوهم الآن مجرمين، وبعيداً عن صعوبة الخطايا التي ارتكبوها فمن تظنونه مجرماً بحق؛ من ارتكب الجريمة أم الذي هيأ له أسباب ارتكابها؟!

كنت ولا أزال أؤمن أن كلاهما مجرم ومخطئ، لكن الآن أعلم أن اللوم لا ينبغي أن يوجه للنتيجة بقدر ما يجب أن يوجه للسبب!

وقد هدئ نبيل من روعي مؤكداً لي أننا وحدنا، وليست مسؤوليتنا حماية كل هؤلاء، بل نحن مسؤولون عمن رأيناهم يحتاجون إلى المساعدة ولم نمد أيدينا لهم، لا أحد منا قد فُرِضَ عليه لإنقاذ العالم، لكن يجب أن تكون عقيدته مد يد العون لمن يستنجد به فيه، أينما كان ومهما كان العون الذي سيقدمه، الكلمة حتى قد تغير بلاداً وتصنع عجائب وغرائب، والتاريخ يشهد، بحق الإله إنه ليشهد!

توجهنا نحو منزل هذا الذي علمنا برغبته في الانتحار، وأمام بابه نظرت إلى نبيل قائلاً: "هذه المرة يا نبيل، ستكون تلك مسؤوليتنا، إن أفلت منا ذلك الشاب فسألقي بنفسي ورائه؛ هذا أهون علي من ألا أستطيع الصفح عن نفسي!"

ربت على كتفي ورد بهدوء: "أنت تحتاج إلى الإيمان يا سيدي، لا تنس ذلك!"

-نعم...الإيمان!

=حتى ولو فشلت فلن تكون مسؤوليتك لأنك حاولت، أنت أفضل بكثير من زملائك القدامى على الأقل!

-نعم يا نبيل...أنا أفضل منهم، أنا لست مثلهم!

=دعنا إذ نفعلها، إني رهن إشارتك!

- لن نطرق الباب بود؛ لن أكرر غلطتنا مع عزيز، سنقتحم المنزل أياً كان ثمن ونتيجة ذلك، وسنمسك بهذا الشاب قبل أن يفكر في أي شيء، وسيكون عليه أن يعترف لأنه أملنا الأخير؛ هذه المحاولات الجماعية دليل على صدق ما توقعته؛ هناك رأس أفعى يجب قطعها، وإن لم نصل إلى هذه الرأس فتخيل فقط...

=سيدي، اهدأ، سننجح!

-...آمل يا نبيل...هيا، فلنفعل ما يجب أن نفعله، وما لن يفعله أحد سوانا!

حطمنا الباب ودلفنا مسرعَين إلى الداخل؛ فوجدنا الشاب قد فوجئ بحضورنا لكنه رغم ذلك شرع يركض مسرعاً أعلى الدرج؛ فركضنا وراءه إلى أن أصبحت على بعد سنتيمترات منه ثم قفزت نحوه بجسدي كله وقيدت حركته، ثم رفعته عن الأرض وطوقت عنقه بذراعي، وسألته السؤال الأهم: "لماذا أيها المجانين؟! ما الذي يحملكم على إزهاق أرواحكم؟!"

أجاب بصعوبة: "لكي تنتبهوا إلينا وتشعروا بما نعانيه، كانت الطريقة الوحيدة أن نضعكم في خضم ما نحياه، ولا يمكنك القول أنها تجربة سارة حسبما أفترض!"

-لا تمارس هذه الألاعيب معي الآن!

=لكني لا أمارس أية ألاعيب، أنتم من تمارسونها مع أنفسكم، نحن أحكمنا خطتنا وتعلمنا قيمة التضحية من أجل الأجيال القادمة، لم نشعر بمعنى لحيواتنا بقدر ما نشعر اليوم!

-تشعر بمعنى حياتك بإنهائها؟!

=من رحم هذه النهاية تولد بداية جديدة، وهذه الصدمة التي نقدمها للناس اليوم هي الهدية والخلاص الذي سيخرجهم مما هم فيهم ويعيد إليهم مشاعرهم ووعيهم...

-وهل تراه حقق شيئاً الآن؟!

=...الأمور العظيمة تأخذ وقتاً...

-كم منكم عليه أن يموت إذن في سبيل إيصال رسالتكم النبيلة؟!

=اسخر كما شئت...

-أنا لا أسخر أيها الأحمق بل أتفهم كل ما تفعلونه، لكنه جنون خالص!

=...لا أحد يفهمنا على الإطلاق!

-دعك منهم؛ لا أحد فيهم يرى أبعد من نفسه...أنا أفهمك...لكن أرجوك ألا تفعل هذا؛ أنت لا تصبح هكذا قدوة لمن سيأتون لاحقاً لأنكم توجهون جهودكم بشكل خاطئ، أنتم بما تفعلون تحاربون أنفسكم وحسب، ولا أحد يريد أن يأبه لكم مهما فعلتم وهذا واضح وجلي، كف عن إنكار هذا واطرد هذه الفكرة من ذهنك، أقسم لي أنك لن تنفذ هذا وسأفلتك!

=...أقسم لك أني لن أفعل!

أفلته بالفعل، ثم سألته مسرعاً وقد أشرت لنبيل أن يقف خلفه فوراً كإجراء احتياطي: "هل ستعطيني أية معلومات عن زعيمك؟ علي أن أقابله يا فتى قبل أن يموت المزيد منكم!"

ازدرد لعابه ولم يستطع الرد؛ فأكملت حديثي: "لا بد أنكم أتباع له، يمكنكم الاجتماع عنده قبل قدومي إليكم لتطمئنوا أني لن أؤذيه."

=ومن يضمن أنك لن تأتي مع الشرطة مجتمعين؟!

-لأني لست من الشرطة يا فتى! إن كان زعيمك يظن أني ضابط موكل بإيجادكم مثلاً فأنا أحفظ هذه السيناريوهات، أخبره أني استقلت من العمل لديهم منذ وقت طويل، ولن أفكر أبداً في تقديم العون لهم مجدداً!

=...إن كان ما تقوله صحيحاً فهو خطير، لم عساك تصارحني به وكيف لي أن...

- أن تثق به؟! أليست الشرطة من أصدر أمراً بتسليم من ينوي الانتحار؟ لم لا أسلمك إذن؟!

=ماذا لو أنك تخدعني؟!

-اللعنة يا فتى، أرجوك ألا تعقد الأمور علي، ألا يمكنك أن تفهم أني أريد مصلحتكم؟!

=...أنت تعرف أني لا أستطيع الثقة بك!

-فقط اجعله حتى يقابلني هنا إذن في بيتك...بالمناسبة، أين...

=ماتوا، أنا أحيا وحدي، وقوت يومي أجنيه بصعوبة!

-...أنا حقاً آسف لسماع هذا!

=...لا يمكن له أن يأتي بأية حال.

-اجعله يراسلني عبر الهاتف اللعين إذن!

=لكي تتتبعه بأدوات تحديد المواقع...

-أخبرني أين هو أيها الأحمق قبل أن يموت المزيد منكم، أنتم مجرد متسرعين قد استعر بكم الغضب وتقاتلون عدواً قاتلاً دون أن تكون لكم أدنى فكرة عن كيفية مقاتلته! حرمتم المدينة من الألوان وقتلتم أنفسكم ظانين أن هذا سيغير شيئاً و ما زال لديكم صبر وأمل! أليس ما يزعجكم بشأن جيل الكبار غرورهم وظنهم أنهم يعلمون كل شيء ولديهم حق التحكم بكل شيء؟! فلم عساكم تفعلون مثلهم وتتمردون على آراء غيرهم؟! أنا لا أريد إلحاق الأذى بزعيمك اللعين أو تسليمه أو احتجازه أو قتله أو أياً مما يدور بخلدك من هراء...

كنت قد انفعلت جداً وأنا أتحدث فاقترب مني نبيل محاولاً تهدئتي، وبعد بضع ثوان التقطت فيها أنفاسي تابعت، وقد لاحظت تغير ملامح الشاب دلالة أنه يفكر في كلامي: "لا تكن غبياً ومتعجلاً أنت ورفاقك، إن ما تفعلونه بهم يستحقونه بل وأكثر منه، لكنكم بفعلكم ما تفعلونه الآن تخسرون الصراع...أرجوك يا فتى، علي التحدث معه، أخبره أني آت وأعلمني بمكانه أو دعه يختار مكاناً مليئاً بالناس أو..."

=يوم (...)، الساعة العاشرة مساءَ في (...)، هو يحب التواجد هناك للتمشي، سأخبره أنك قادم إليه!

-...أقسم لي أنه لن يكون فخاً، لا تثر غضبي!

=ليس فخاً، أقسم لك!

-...وأنا أقسم لك الآن أني أشعر بك، وأرى دخان أرواحكم التي تحترق، أرجوك أن تنام الليلة وأنت على علم أن أحدهم يفهمك، ولا يود التقليل منك أو قهرك والسيطرة عليك؛ سيحدث هذا فرقاً حسبما آمل!

١١

رغم أنك قد لا تطيق الحياة في حال كحالنا وبلدة كبلدتنا، وأتحدث خصوصاً عن مسألة انعدام الألوان تلك، لكنك لن تقاوم الاعتراف بأن الليل هنا، في غمرة سواده وأحلك ظلماته، له مذاق خاص ومظهر مميز يعود بك إلى أفلام النوار من زمن الأبيض والأسود، حتى وإن كانت هذه العودة حرفية أكثر من اللازم!

الليل هنا مظلم جداً لدرجة أن السير فيه يغدو مستحيلاً أكثر من الطبيعي لولا أعمدة الإنارة ومصابيح الهواتف وغير من الوسائل؛ فالألوان تُعكس في نظر من يراها ليتحول ما كان باللون الأبيض في الصباح إلى اللون الأسود في المساء، وبما أن السماء بيضاء...فتخيل مقدار الظلمة!

يهوى الليل تجسيد روحي بشكل ملموس أمامي؛ فلا أعلم ظلاماً أحلك من ظلامه وظلام نفوس الشباب وظلام نفسي، وأحترمه لأنه يتشكل على هيئة مكنون أنفس السائرين فيه ليواسيهم؛ وكي يشعروا أن أرواحهم هنالك ما هو أسود وأقسى من ظلماتها!

وفيه، تصبح الدموع أقرب مما كنت تظن، ويصبح صراخ روحك مسموعاً لأذنيك، ويجهر الماضي بالشماتة فيك داخل عقلك، وتكتشف أن آمال المستقبل لم تستلم دعوة لهذه الحفلة للأسف!

لا مكان للنور بداخلنا، كلنا نحب الظلام وإن أنكرنا هذا، ونعشقه ونغرم به؛ وكيف لا وهو ما نراه عندما نغمض أعيننا لنرتاح وننام، ولحظة النوم وتوقف العقل هي أعظم لحظة قد يحياها إنسان مهما اعتادها، وهو ذكرانا الوحيدة من وقت كوننا في بطون أمهاتنا لا نعلم عن الدنيا شيئاً...

لم يخبرنا أحد أن العالم سيكون مظلماً هكذا!

لم يحذرنا أحد من أيامٍ يصبح النور فيها نكتة، والخير ذنباً، والأمل بدعة!

سرتُ نحو المكان الذي حدده لي الشاب، وعندما وصلت إلى الجسر وجدت شاباً وحيداً يقف ويتأمل...لا أدري إن كان يتأمل السماء أو البحر أو الأضواء البيضاء فكل منهم كان بارع الجمال، بأية حال اقتربت منه وأنا على يقين أنه هو، وصدق يقيني!

وقفت بجانبه أشاركه تأمله، واخترت تأمل السماء ولا أذكر لماذا، مرت بضع ثوان ونحن صامتَين إلى أن كسر الصمت بسؤاله: "أنت من أخبروني عنه إذن؟!"

بادلته السؤال: "الأمر يعتمد على ما أخبروك إياه!"

=أخبروني أنك مجرد رجل ترك الشرطة ويسلي وقته الفارغ بتقفي أثرنا؛ وأقول أنا أنك تفعل ذلك لأنك فارغ كهذه السماء التي اخترت تحديداً تأملها، وتشعر بذنب ربما أو تود إثبات شيء ما لأحد ما، أو ربما تود فعل الصواب كما يصوره لك عقلك وحسب، لكن آخر احتمال أستبعده؛ أعلم أن لك حكاية ما!

أبهرني تحليله بصراحة، وبعد سماعي لهذه الكلمات أدركت أني لا أتعامل مع شخص عادي على الإطلاق؛ ولذا فقد كان علي أن أنتقي كل كلمة بحذر وأبادله لعبة التشريح النفسي تلك؛ فرددت: "ولا بد أن لك حكاية أنت الآخر؛ ربما تكون شاباً قهره المجتمع وأسكت صوته ولم يأبه لحاله؛ فقرر الانتقام بدفع أرواح بريئة

للانتحار في محاولة لفت انتباه سخيفة لا تليق حقاً إلا بهذا الجيل من الشباب؛ ظناً منكم أن هذا قد يغير شيئاً فإذا به لا يفعل؛ فإذا بك هنا وحدك تركز بصرك على الأضواء أمامك علها تمنحك أملاً زائفاً أو تجعل خيالك ينتشي بخيال نصر تعلم يقيناً أنك بعيد عن تحقيقه، رغم أن الأولى لكلينا أن نتأمل البحر لندرك أننا لسنا وحدنا، وأننا بالنسبة للعالم لسنا سوى نقطة من هذا البحر!"

ضحك الشاب وهو يصفق قائلاً: "رائع، حقاً رائع، يبدو أني سأستمتع بهذا الحديث معك!"

-لا تقلق؛ أنا لست مملاً على الإطلاق كما قد تظن!

=دعنا نتمشى سوياً نحو منزلي، ولا تقلق إذ أني وحيد فيه، ولن نواجه كميناً من رجالي في الطريق؛ فلا تقلق ودع عنك التفكير في هذا ودعنا نصب تركيزنا على الأمور الهامة!

وبالفعل رحنا نتمشى سوياً نحو منزله، وظللنا صامتين في البداية لبضع دقائق إلى أن تحدث هو كاسراً الصمت مجدداً: "سأجيب على سؤالك الأول والأهم الذي لن تحتاج لسؤاله، لقد صنعت ورفاقي بضعة أجهزة لتوليد أشعة فوق بنفسجية بمقدار ضخم ويكفي لإفساد الرؤية لدى الجميع، وزرعناها في مناطق محددة بالبلدة، ولم يمر وقت قصير قبل أن تنجح خطتنا ويرى كل منكم العالم كما نراه!"

خطة مبهرة...إني حقاً لا أتعامل مع شخص عادي!

سألت: "ألا يبدو لك هذا فعلاً أنانياً بعض الشيء؟!"

=نحن الأنانيون؟! أحقاً لا تراهم...

-حياتك وسط الطين لا تفرض عليك تلطيخ نفسك به!

=كلام نظري على ورق، لا بد لك أن تتلطخ ولو بقدر بسيط!

-لكن القدر البسيط ليس حالتك؛ لقد ارتكبت جريمة في حق الكثيرين!

=النقمة تعم، ثم أني أعد ما فعلته هبة لهم لم يعرفوا قدرها بعد.

-ولن يعرفوا، لن يتغير شيء أو يتحرك أحد!

=...أتعرف؟ أياً كان ما حدث أو سيحدث فكله يثبت صحة وجهات نظري!

-ألا وهي؟

=أن الناس، حسب تحليلي، قد فقدوا أرواحهم منذ زمن طويل، وأصبحت حياتهم مجرد أيام ثقيلة من الملل والكآبة، وجميعهم يعانون من خواء قاسٍ يجعلهم يشكون في معنى وجودهم، ليس سهلاً أن تحيا هكذا مفرغاً من القيمة على هامش الحياة لا دور لك فيها أو أهمية، وأيضاً ما عادوا يهتمون بأي شيء؛ أي أنه ما من أمل في عودة الأمور إلى ما كانت عليه منذ زمن بعيد حينما كان البشر لا يزالون بشراً ويفهمون معنى هذه الكلمة!

-يبدو أننا متفقان وهذه بداية ممتازة، أودك أن أتابع.

=لا أحتاج إذناً منك كي أتابع!

- لم أقل أني أعطيك الإذن إطلاقاً، بل قلت أني "أود" سماع بقية ما لديك!

=...لا شيء كما يبدو عليه، وأظن الخير والشر قد أصبحا مفهومين جدليين غير نقيين، ما عدت تستطيع تمييزهما...

-أيعني هذا أنك ترى نفسك بطل القصة؟!

=إني أعلم جيداً أني أخطأت، وأحفظ خطاياي كاسمي، لكني أعتقد أن الجرأة على تحقيق الشر الحتمي والضروري في حد ذاتها فضيلة!

-لن أمانع كونه حتمياً إن كان سيغير شيئاً!

=ليس المهم عندي أن يغير بقدر أن يثبت، وقد أثبت لي وللجميع ما أفصله لك الآن!

-تابع إذن.

=الناس ما عادوا يأبهون بأبسط التفاصيل وأبرز الجماليات في حياتهم، حتى الألوان تأقلموا مع غيابها، الألوان التي هي طعم كل شيء وهويته أصبحت سريعاً ذكرى من زمن يظنونه بعيداً، وهذا كله موجود بالمناسبة قبل تنفيذنا لخطتنا...

-أجل، وإني شاهد على صدق كلامك.

=يبدو أن كلينا ما عاد يرى جمالاً في العالم على الإطلاق!

-...ربما يكون الإيمان هو آخر ما تبقى لي لأراه جميلاً!

=وأنا أيضاً فعلت كل هذا من منطلق الإيمان!

-بم تؤمن؟

=أؤمن بأن كثيراً من هذه الحوادث ستعيد الناس إلى صوابهم وتردهم إلى إنسانيتهم يوماً ما، وأني مجرد لبنة في بناء عظيم...

-ألا تؤمن بالرب؟

=من العبث ألا أفعل.

-ألا تؤمن أنه سيحاسبك على كل هذه الأرواح التي أزهقتها؟

=بالطبع سيفعل.

-وأنت لا تأبه لمصيرك؟

=ما عاد مني أمل، المهم من سيأتون من بعدي!

-كلا، المهم هو أن تحقق المعنى لنفسك وحسب!

=أتتهمني بالأنانية؟!

-بل أقرر اتسامك بها، لا يحق لك إغراق جيلك بدعوى أن الجيل القادم سيتعلم السباحة!

=هؤلاء الذين انتحروا ووصفتهم بالأنانية قد انتقلوا من مرحلة الأنانية نفسها والغضب الذاتي ورغبة الثأر إلى رحاب الإيثار!

-هذا ما يصوره لك خيالك، ولكن ما زال المسمى الحقيقي للأمر عملية انتحار جماعي لمجموعة من الشباب يئسوا من حياتهم فقرروا أن يجعلوا لها معنى بإنهائها ظناً منهم أن أحداً سيذكرهم!

=لا بد أنك ستحيا لترى!

-لا تقل لي أنك تنوي الانتحار مثلهم!

=مسألة وقت!

-اللعنة!

=ألن تدعني أكمل كلامي؟!

-...أكمل!

=الحكومات لا تهتم حقاً بمصالح شعبها، ولا الشرطة تسهر على راحتهم كما علمونا.

-لا أختلف.

=رغم أنك كنت شرطياً يوماً ما!

-مثلي مثلك؛ أحفظ خطاياي كاسمي!

=... الاستغلال حقاً من أقبح الرذائل البشرية، والمساكين الأبرياء مهمشون دائماً.

-بديهيات.

=والحقيقة الأخيرة أن شبابنا مقموع، يائس، يتألم إذ أن أحلامه قد أصبحت خطايا!

-أعلم.

=دمرتمونا وأعجزتمونا عن مساعدة أنفسنا، بل وحتى ما عدنا نستطيع مساعدة إخواننا من دول وبلاد مجاورة، ولو بالكلمة، بينما يتآزر العالم ضدهم مدعياً البراءة سا خراً من كل قوانين وقواعد الدنيا، حتى تعاطفنا معهم قد فقدناه ومشاعرنا تجاههم أصبحت مجرد روتين لا جدوى منه ككل لحظات حياتنا!

-إني أشعر بك وأتفهمك، لكن ما زال كل ما تفعلونه خطيئة عظيمة.

=لم تكره ثورتنا وتثبط همتنا هكذا؟!

-بل أعيدك إلى الواقع أيها الأحمق وأحدثك باسمه!

=حسناً يا رسول الواقع، ماذا يريد الواقع أن يقول لي؟ أن نسكت وألا نفعل شيئاً؟!

-بل نفعل، لكن ليس هذا!

=لا يحق لأحد أن يقرر كيف نفعلها.

-ولا أنت!

=ولا أنت!

-إن أتباعك يلقون حتفهم بسببك!

=كما أخبرتك؛ تضحيات ضرورية!

-ليست ضرورية على الإطلاق، هذا ما صوره لك خيالك ولقنتهم إياه مستغلاً خوائهم! اللعنة...أنت لا تريد أن تفهم أو تستمع وهذه أكبر مشاكلكم حتى لو كنتم على حق، أنتم مجرد شباب غاضب مكبوت مقهور وأنا أتفهم هذا، أتفهم ما فعلته البلد وما فعله الكبار بكم، لكنكم حمقى إذ تظنون العنف والعشوائية وسيلة لتحقيق أي شيء، ولا أنكر أنه أحياناً ما يكون كذلك لكن...ليس كما تفعلون على الإطلاق!

=أيحل القهر والإذلال لكم ويحرم علينا؟!

-أهو خير وصواب من الأساس؟ إن لم يكن كذلك فلا يحق لأحد على الإطلاق فعله، ولا يحق لكم أن تفعلوه ثم تدعون أنكم الأبطال، كيف تجرؤ؟!

=أعطني حلاً لعيناً إذن، أعطني إجابة تريحني!

-...لا توجد إجابة يا بني، ولم يجب أن تكون هنالك إجابة أصلاً؟! لا علاج محدد نعالج به أمراض البشر أو نشفيهم به من آلامهم، فإن لم يكن هنالك خير لنفعله دعنا على الأقل لا نفعل الشر، أنت لست أول من يحاول ذلك في التاريخ، وأنت تعرف جيداً أنك فشلت وأنا لا أحدثك حتى عن التفاصيل لأن الأمر أوضح من أن نستخرج منه أية تفاصيل، فلم تصر على الإنكار؟!

وأعلم أنكم لن تصدقوا ما حدث بعدها وهذه ليست مسؤوليتي، لكني سأصفه بكل صدق.

لقد رأيت دموعه تنهمر فجأة، ورأيت الكلمات تختنق في حلقه، وأقسم أنني لم أصدق حينئذ ما رأيت!

هذا هو كل شيء، هذا البكاء هو ما يحاولون ستره، هو الصوت الذي يسمعون أرواحهم تصدح به كل يوم ويتجاهلونه، لا أدري لم ينكر الجميع أنهم يتألمون ويظنونهم مجرد متغطرسين، وإن كان أغلبهم كذلك بالفعل، لكن هذه الغطرسة لم تأتِ من فراغ على الإطلاق!

وبدون تفاصيل كثيرة تلاحقت المشاعر داخلي، ولا يسعني إخباركم كم فطر بكاؤه قلبي؛ فوجدتني أضمه إلي بقوة كما يضم أب ابناً إلى صدره لم يره منذ زمن، شيء ما جعلني أشعر أن هذا الشاب كان ليكون ابناً لي في حياة أخرى...لا أدري كيف يمكن لي أن أشرح لكم هذا الشعور، لكني بأية حال وجدته قد استسلم ودفن نفسه بين ذراعيه وهو يبكي بحرقة وبراءة عجيبتين!

أظن أن العالم كله فقد منطقه بالنسبة إلي في تلك اللحظة!

من المجرم حقاً؟! أنا لا أبرر له فعلته لكن، أهو المجرم الحقيقي أم الذين تكالبوا عليه ليجعلوه هكذا هو وأمثاله؟!

وجدتني أكبح دموعي بصعوبة أنا الآخر، لم تعد المسألة جدالاً فلسفياً بيني وبينه يفترض أن ينتهي بانتصار أحدنا، ما عدت أريد أن أنتصر كما تخلى هو عن رغبته في ذلك، كل ما أردته في هذه اللحظة أن تهدأ روحه وأن يكف عن البكاء بأي ثمن!

شرعت أربت على كتفه وأنا أقول له مهوناً عليه حاله: "اعلم أني لا أطيق رؤيتك تبكي، وأني أتفهم حالك وحالهم...لكني لا أريدك أن تظلم نفسك وغيرك وتستسلم لهم، إن كل ما تفعله هو استسلام وتقريب لهدفهم؛ إن قتلتم أنفسكم جميعاً من تظنه سيستفيد غيرهم؟!"

قال من بين دموعه: "أنت تعلم أن ذنب من انتحروا بسببي سيطاردني إلى نهاية حياتي، وأني أحاول إنكاره لئلا أضطر إلى مواجهته لأني أضعف من أن أفعل، أليس كذلك؟!"

- أنت قوي جداً لتفعل كل هذا وتملك كل هذا التأثير، لكنك وجهته للأسف في مكان خاطئ، أعلم أن ذنبهم يلتهمك لكني...لا أملك حقاً ما أقوله لك، لقد فعلت أمراً تعجز الكلمات عن وصفه!

=...أيسامحني الرب على ما فعلت؟!

-...ما أعلمه يقيناً أنه يفهمك، أما عن كونه يسامحك...دعنا نقل أنه من الأفضل أن تتحلى ببعض الإيمان!

=أتسامحني أنت؟!

-...أنت تعلم أنه سؤال عسير الإجابة، لكن تأكد أني على الأقل أتفهمك، أعلم أنكم تحترقون من الداخل وفعلتكم هذه ما كانت سوى دخان هذا الحريق، ولكن لا يجب على الجميع أن يتأذوا من هذا الدخان يا بني...

=اسمي (...).

-...واسمي يونس.

=...أعلم أن هذه المحادثة لن تظل ودية لوقت طويل...

-بل ستكون يا (...)، لكني أريدك أن توافق على طلباتي، أرجوك أن تفعل لئلا تصعب الأمور علي!

=...اطلب.

-لا تجعل أحداً يأخذ قرار الانتحار مجدداً، حدث رفاقك واطلب منهم أن يتوقفوا عن هذا...أنت تعلم جيداً أني أفهمك ولا أريد لك أذى أو ضرر، لكن الشرطة لو اهتمت بالأمر حقاً ستضيعون جميعاً؛ لأنك تعلم أنه من السهل عليهم تصفية كل من يضايقونهم بحجة أنه إرهابي أو يمثل تهديداً للبلد...أنت تعلم!

=لكني حقاً عدو للبلد!

-...كنتَ كذلك، اتفقنا؟!

=...اتفقنا.

-أقسم لي!

=أقسم لك أني سأفعل ما طلبته مني.

وهنا أفلته وتابعنا السير لبضع دقائق دون حديث، كان الصمت هو الحل لكل منا كي يستعيد وعيه وتركيزه؛ لأن ما حدث منذ قليل لا بد أنه جعل كلاً منا يعيد التفكير في نفسه ومسألة وجوده منذ البداية...

وأخيراً، وصلنا.

سبقني ودخل منزله، وبدا حقاً أنه يحيا وحده هو الآخر، وأعلم أنكم تنتظرون تفاصيل عن حياته وكيفية تصميمه للأجهزة ووظيفته وخلفيته وكل ذلك، لكني في الواقع لم أسأله لأني لم آبه حتى لكل ذلك![1]

دخلت وراءه، وقادني إلى قبو وأمرني أن أنتظره، وبعد قليل عاد إلي بمفاجأة!

[1] هذا استسهال مني في الحبكة بصراحة ككاتب، بس مكنتش رايق بصراحة أعمله بقا خلفية وبناء وبتاع...طالما الفكرة وصلت خلاص يعم متوجعش دماغنا بقا.

١٢

وضع بين يدي عدستين ملونتين وقال لي أني أستحقهما؛ فقلت له أني أعلم كثيرين ممن يستحقونها أكثر مني وهو في مقدمتهم منذ تلك اللحظة؛ فقال أنها معه منذ وقت طويل وقد صنعها بنفسه ولم يعرف حتى لم فعل هذا، لكن يبدو أه وجد فرصة ليعطيها لمن يستحقها.

ولكني سألته السؤال البديهي: "أما من علاج لكل هذا غير تلك العدسات؟"

فأجابني بالنفي، وبأن الأكروماتوبسيا ما من علاج لها، وأنه حتى حاول التوصل إلى علاج بنفسه وفشل - ألم يكن أولى بهذا العقل العبقري أن يُراعى ليخدم بلده والعالم بأسره بدل أن يُقهر هكذا فيفعل ما فعله - فسألته السؤال البديهي الثاني: "ألا تستطيع صناعة المزيد من العدسات؟"

=من الصعب علي تصنيع كمية كبيرة بقدر ما تصنعه الشركات المستغلة للموقف.

-ألا يمكنك حتى تصنيع خمسة أزواج من العدسات مثلاً كبداية...

=لو أني أستطيع لفعلت، وأعلم أنك تظنني أستطيع لأنني أخبرتك أني صممت أجهزة بث الأشعة لكن...

-لكنك لا تريد!

=...اسمع، ربما أحدث رفاقي ونحاول إنتاج المزيد حقاً إن كنت تصر رغم أن الأمر أصعب مما تتخيل...

-خذ ما يلزمك من وقت.

=شهور؟

-كحد أدنى، نعم، خذ وقتك!

=...هل لي بسؤال؟

-سل ما بدا لك.

=لم تركت الشرطة حقاً؟

-إن حكيت لك حكايتي؛ أتحكي لي حكايتك؟

حكيت له بالفعل كثيراً مما حكيت لكم سلفاً، وحكى لي هو الآخر لكني أفضل لأسباب كثيرة أن يظل ما حكاه سراً؛ لأني حقاً أحترم هذا الشاب وأشفق عليه، وهذا ما يجعلني أحبذ عدم الإفصاح عن اسمه أيضاً بالمناسبة.

حكيت عن زوجتي، ونبيل - دون ذكر اسميهما - وعندما أعلمته أني أيضاً أعاني خدراً انفعالياً وفقدت به إنسانيتي؛ أصر أن آخذ العدسات قائلاً: "دعنا نقل أني لا أعطيك إياها كهدية، بل كاختبار."

-أي اختبار؟

=اختبار سيحدد ما إن كنت حقاً إنساناً ولك قدرة على اتخاذ ما يميز الإنسان من خيارات أم لا، ولن تفهم كلامي الآن!

-ولكني ما زلت لا أفهم!

=إن شرحت لك الاختبار؛ فلن يكون اختباراً، ستتوصل إلى السؤال والإجابة بنفسك...أثق بهذا!

ولا أود الحديث كثيراً عما جرى بعد ذلك إذ أنه ليس مهماً بقدر ما قصصته، أما المهم فهو ما حدث بعد يوم أو اثنين؛ فقد استدعيت نبيلاً وجلسنا معاً في شرفة بمنزلي، وحكيت له ما كان قبل ساعات وأمرته أن يكتم هذا السر بداخله، ولم أخبره بالطبع باسم الشاب ولم يسأل هو عنه بأية حال، وأسررت له أنه خلال عام مثلاً قد يتوفر عدد لا بأس به من العدسات يمكننا توزيعه على من نعلم أنهم يحتاجون إليها حقاً كبداية، وعندما أنهينا الحديث عن هذا الأمر أخرجت زوج العدسات الذي منحني إياه الشاب وقدمته له قائلاً: "خذها يا نبيل، أعطها لذلك الذي سرقت من أجله في المقام الأول عندما قابلتك."

لكنه رفضها دون تردد: "كلا يا سيدي، دعك منه ومني، أعطها لزوجتك!"

شعرت إثر اقتراحه أن العالم قد توقف للحظات، وقد لاحظ هو ملامح وجهي الشاردة فاستطرد: "أذكر أني أخبرتك أني سأساعدك لتحاول معها مجدداً، وما من فرصة أفضل من تلك!"

سألته مجدداً وقد شعرت أن قدمي لا تحملانني: "وماذا عن ذلك ال..."

قاطعني وهو يغمز لي: "لا تقلق بشأنه يا سيدي، سأحاول السرقة من أجله مجدداً بنفسي!"

ضحكت دون مقاومة وأنا أداعبه قائلاً: "كن حذراً هذه المرة : "كن حذراً هذه المرة إذن!"

=لنأمل فقط أنك لن تكون من سيلقي القبض علي!

-بعد كل هذا الذي حدث؟ على النقيض تماماً يا نبيل؛ ربما تجدني أساعدك بنفسي في السرقة كي نوزع على الكثير من الناس قدر إمكاننا!

بالطبع ضحك نبيل وضحكت، ولكن ما لم يعلمه وقتئذ أن جزءاً من نفسي كان يأخذ الأمر حقاً على محمل الجد، وتخيلت لجزء من الدقيقة أني حادثت الشاب مجدداً واتفقت معه ومع أتباعه ومع نبيل أن ننفذ جميعاً عمليات سرقة لمخازن المستثمرين في تصنيع العدسات، بهويات غامضة وبمجهود في التخفي...وددت لبضع ثوان أن أصبح روبن هود المدينة وأنهي ما بدأه نبيل، ولكني صرفت هذه الفكرة وقتئذ بالطبع سريعاً...ولا يعني هذا أنها رحلت عن ذهني تماماً، حتى اللحظة التي أكتب فيها هذا!

ولاحظ نبيل شرودي فتنحنح ليخرجني منه قبل أن يقول: "بالنسبة لأمر زوجتك، دعنا نبدأ بإرسالك العدسات لها ولننتظر ردة فعلها، وإن تأخرت سننتقل إلى الخطة البديلة وهي ذهابك لمقابلتها، وعندئذ سأكون شاهداً معك على حكاية ممتعة من بطولتك لا بد أنها ستسعد بسماعها يا سيدي!"

-رغم أني لا أشعر بأية بطولة هنا يا نبيل، لا أشعر أننا حققنا شيئاً عظيماً...

=بل حققنا شيئاً عظيماً يا سيدي ولكنه أقل عظمة مما توقعنا وحسب، أنت تركز على الحل لا الإجابات، انظر حولك واسترجع ما حدث يا سيدي؛ لقد كشفنا كل شيء وعرفنا الحقيقة، وأنبتنا بذرة أمل أن كل شيء قد يكون بخير وأن هؤلاء الشباب قد يحصلون مقدماً على تشجيعهم يدفعهم لمتابعة تصنيع العدسات بأسعار أرخص من عابدي الأموال الذين نعرفهم، وأيضاً أوقفنا عمليات انتحار جماعية كانت لتزيد عن حدها أكثر من ذلك لولانا، والأهم أن هنالك فرصة تلوح في الأفق لتحسين علاقتك بزوجتك السابقة ولو بقدر بسيط، ألا تعد كل هذا انتصاراً؟!

-...أنت محق يا نبيل، أنت محق!

=بل وهنالك انتصار أعظم يا سيدي، وهو انتصار يخصني أنا، ألك أن تخمنه؟!

-قله وحاسب؛ إني فاشل في التخمين!

=معرفتك هي انتصار رائع لي يا سيدي، إن إيثارك أبهرني حقاً؛ فأنت تعلم قيمة هذه العدسات ورغم ذلك لم تتردد في منحها لغيرك! التضحية فضيلة نادرة حقاً رغم أني أتمتع ببعض منها لكن...لم أتخيل أني سأجد أحداً آخر يتحلى بها في هذا الزمن!

وفقط عندما أنهى نبيل جملته؛ تذكرت ما قاله الشاب عن الاختبار، وفهمت أخيراً سؤاله وإجابته!

ولم يكن ردي التالي مزايدة عليه وإنما حقائق أقر بها قلبي: "ومعرفتك أيضاً انتصار لي يا نبيل؛ أريدك أن تعلم أني أحترمك أكثر مما تتصور؛ فقد علمتني قيمة وجود المرء ومعناه في الحياة، ودفعتني لأكون فاعلاً في الحياة بدلاً من ثبوتي على كوني مفعولاً به، أنت تفهمني بالتأكيد!"

وكانت ابتسامته هي انتصاري الثاني!

أما عن أبرز ما حدث بعد هذا اللقاء، وهو الحدث الذي سنختم به هذه المذكرة والقصة كلها لأني بدأت أشعر أنك مللت مني، فكان أني ذهبت إلى المقهى الذي أعلم أنها تحب الجلوس فيه – لا أذكر إن كنت قد لمحت لك سابقاً لهذا الأمر أم لا، لكنك عرفته بأية حال[٢] - وتركت هدية باسمها لدى صاحبها، وراقبت الموقف من بعيد إلى أن تأكدت أنها أتت وتسلمتها، وهنا رحلت مسرعاً دون أن أشغل بالي بردة فعلها...

[٢] عديها وحياة أبوك؛ كنت ناسي أتكلم أكتر عن الحتة دي ف الفصول للي فاتت وأقول إنه كان بيراقبها كتير زي ما انتاب تخش أكونت الاكس بتاعتك كدا بالظبط

رغم ما قاله لي نبيل إلا أني لم أهتم حقاً بصفحها عني؛ فأنا كنت وقتئذ ما زلت أرى أني لا أستحق ذلك، كان كل ما يهمني أن تبصر هي الألوان مجدداً لأنها تستحق ذلك أكثر مني، خاصة بعد ما فعلته بها ولم أسامح نفسي عليه أبداً.

ما عاد يهمني شيء، أصبحت رجلاً حراً، ولم أنس أبداً ما قاله نبيل بل وآمنت به واتخذته عقيدة لي؛ ربما ليس من الضروري حقاً أن تجد حلولاً لكل المشاكل أو أن تحيط بكل الغنائم، ربما يكفي وحسب أن يحصل المرء على إجابات لأسئلة تؤرقه ويكون ذلك كافياً له بل ولا بأس أن يعتبره نصراً عظيماً إن أراد، وربما يكفي أيضاً أن يعرف لمشاكله حلولاً حتى لو لم يكن مقتدراً عليها...

ربما كان كافياً لي أن أعرف أني لا زلت أحبها، وأنها منذ اليوم – بافتراض أنها قبلت هديتي – ستنام وتصحو على الألوان لتنافسها في جمالها وجاذبيتها وأسرها للعيون، وربما لن تذرف عيناها الحلوتان دموعاً ثانية، ولا أخفي عليكم أن هذا، وبكل صدق، كان انتصاري الأعظم.

أحبك يا حنين، وأحن إليك كما يحن الليل إلى نجومه ويحن الإنسان إلى عدمه، لم أعلم في العالم من استحق الحب والغرام والدلال أكثر منك، نسيانك صعب لكنه إن حدث سيكون مجرد محاولة مني للتأقلم مع الواقع؛ وحماية لي من الجنون والهذيان والهوس...

أتمنى لها ليالِ سعيدة كثيرة، ولكَ أيضاً![3]

تمت بحمد الله

[3] أعتذر عن الخلط في مخاطبة القارئ بضمير المفرد والجمع في عدة مواضع، عديها تاني وحياة أبوك!

محمد تامر

نوار

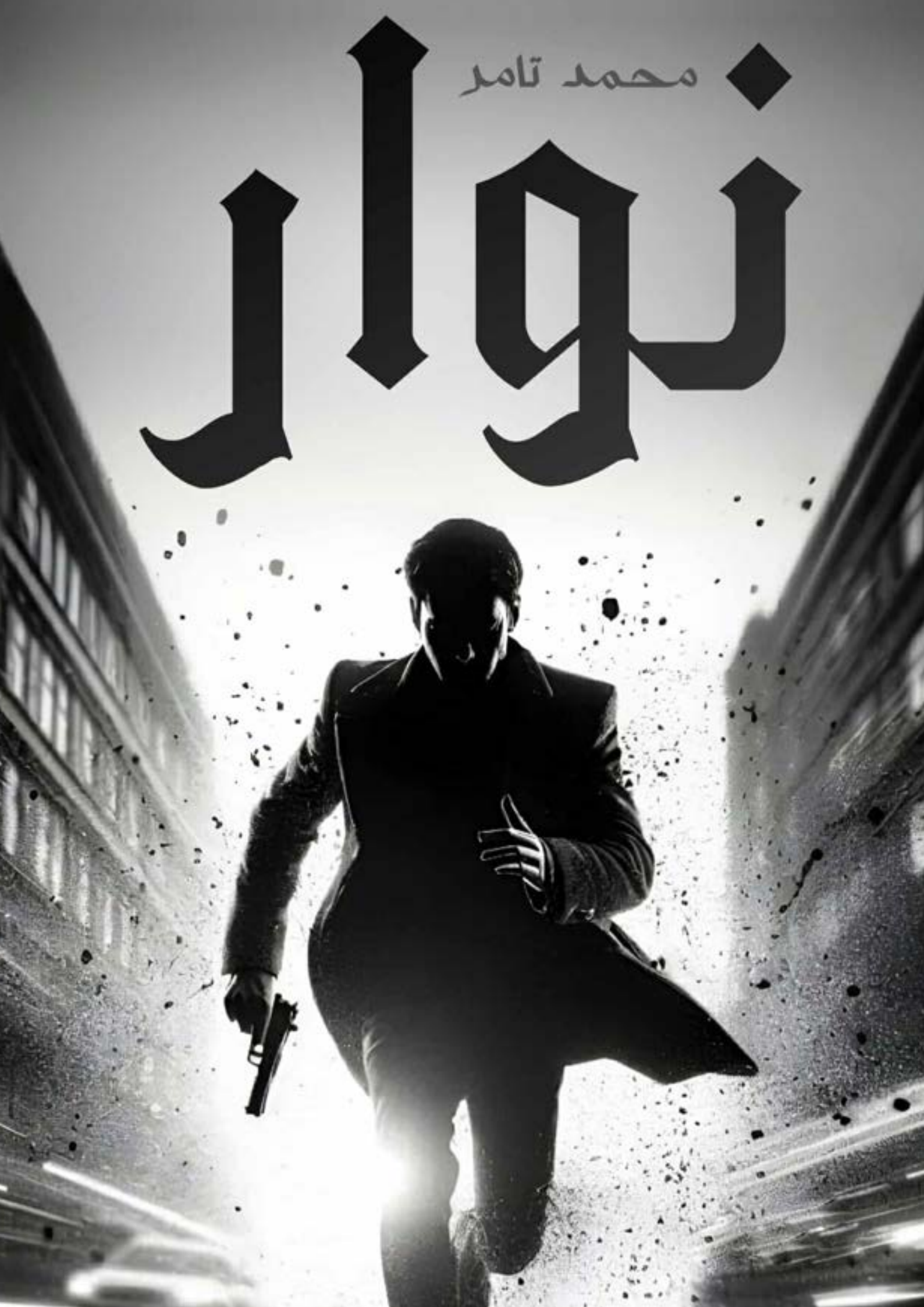

فصل سري

على هامش الرواية

محتوى محذوف

● كانت نيتي في البداية أن تكون الرواية من صنف الخيال العلمي حقاً؛ بأن يكون عمى الألوان هذا حالة طبيعية أو لعنة أصابت المدينة لسبب ما، لكني استبعدت الفكرة نظراً لأني لم أستطع أن أنطلق منها إلى أية أحداث أو أفكار.

● كان من المفترض أن يحدث هذا كله فجأة؛ أن يستيقظ يونس في مكان ما فيفاجأ أن كل شيء أصبح بالأبيض والأسود، ويقابل اللص نبيل في ظروف عشوائية أكثر.

● أردت أن يقوم الشباب بمظاهرة ويحدثون فوضى في الشوارع يحاول يونس ونبيل التصدي لها ضمن أحداث القصة بالفعل، وأردت لهذه التأثيرات الخيالية في الحلم أن تكون حقيقية كوني نويت جعلها من صنف الخيال العلمي في البداية، ولأن التخلي عن هذه الأفكار كان صعباً علي قررت أن أدرجها لأهمية وعمق دلالاتها بأية طريقة، حتى لو في مشهد حلم وحسب.

● كانت هنالك خطط لجعل الشباب أعنف، وكان من المفترض أن يكون مظهر الشاب الأول مقلقاً أكثر، وأن يكون محترفاً وقاسياً ذا دم بارد.

● هنالك مشهد محذوف من القصة كان أحد الشباب الثائرين فيه سيلقي خطبة وهو على سطح مبنى عال يخاطب فيها أهل المدينة، ثم يقفز منتحراً وقد

فشل يونس ونبيل في إنقاذه، ولا أدري لم آثرتُ حذفه بصراحة لكن...أظنني مرتاح أكثر لعدم وجوده.

- لم يكن من المفترض أن يكون يونس محققاً حتى وإنما مواطناً عادياً، لكني شعرت أن جعله من الشرطة سيخدم الأعماق النفسية للقصة كثيراً.

- فكرت في البداية أن أكتب الرواية بخطي أحداث، أحدهما مذكرات يونس والآخر مذكرات الشرير التي توضح أكثر كيف وصل إلى هذه المرحلة.

- هنالك خط ثان نويت كتابته أيضاً غير خط الشرير؛ وهو خط أحداث لشاب عشوائي أو شاب من أتباع الشرير، يحكي فيه حاله وحياته في ظل ما يحدث.

- نويت استخدام أسلوب سرد الراوي العليم، لكني شعرت في النهاية أن الحكاية من منظور يونس ستكون أفضل وذات وقع أعمق بالنسبة إلى القراء.

تهمني آراؤكم بالطبع، بشأن الرواية نفسها أو بشأن محتواها المحذوف وما أردتم وجوده منه، وفي أغلفة الرواية والفصول، وأرحب بمقترحاتكم لتحسينها وصقلها أدبياً بشكل أفضل وأقوى.

وإن أردتم التواصل معي أو متابعة أخباري؛ فهذا رابط صفحتي الشخصية على فيسبوك؛ علنا نكون أقرب:

/https://www.facebook.com/share/1ZyPNaRYWk

جزيل الشكر لكل من آمن بي وبما أفعل، ولكل من قرأ ولو جملة مما كتبت، وأذكركم في الختام مجدداً ألا تنسوا إخوانكم في فلسطين الحرة من دعائكم، وألا تنسوا أنها قضيتنا قبل أن تكون قضية كل من لا زالوا يفهمون الإنسانية بمعناها الصحيح في العالم بأسره.

١٣ (نهاية سرية)

لم أستطع منع نفسي بصراحة من قص الجزء الأخير من الحكاية، ولا أدري حتى لم أردت أن أبقيه سراً، لكن هأنذا أقصه، وأعتذر إن كان قراري هذا متأخراً بعض الشيء.

ما حدث بعد ذلك أني وجدت حنيناً تتصل بي ذات يوم، ورغم أني كنت قد حذفت اسمها من قائمة جهات الاتصال في هاتفي كواحدة من محاولاتي الفاشلة لنسيانها إلا أني تعرفت على رقمها على الفور...هذه كرامات لا يفهمها إلا العشاق!

فكرت لبضع ثوان قبل أن أرد ماذا قد يكون سبب اتصالها؛ ربما تود شكري شكراً بارداً يرضي ضميرها، وربما افتقدتني، وربما تود رفض هديتي وإخباري أن أبتعد عنها وهو الاحتمال الأقرب للصواب بالطبع، لكني عندما رددت وجدت الاحتمال الرابع ينتظرني؛ فقبل أن أرحب حتى بها وجدتها تقول بصوتها الذي لم تعبث الأيام بعذوبته رغم أنها عبثت تقريباً بكل شيء: "قابلني، أحتاجك أن تقابلني، أعلم أنك تعرف المقهى لذا فتعال إلي، الآن!"

وأغلقت المكالمة!

ولم أسمح لنفسي بأن أفرح؛ لأني أعرف حظي جيداً وأعرف ما يحدث في كل مرة أرفع فيها سقف آمالي، ما قُدر له أن يحدث سيحدث رغم كل توقعاتي؛ لذا فقد

أحكمت إغلاق الباب على عقلي وقلبي وبدلت ملابسي وخرجت من المنزل مسرعاً وابتلعت قدماي الطريق إلى أن وصلت إلى المقهى!

وعلى بعد خطوات منه رأيتها، والتقت عيوننا...لا أدري حتى كيف أصف مشاعري وقتئذ؛ كأني رأيت نجماً يسقط أمامي، لا تزال مبهرة كأول مرة رأيتها فيها، بل وقد جعل الحزن ملامحها أجمل وأكثر براءة، وغدوت أرى في وجهها شجناً عذباً يسقم روحي ويداويها في الآن نفسه...أنا حقاً لا أستطيع وصف ما فعله مرآها بي بالكلمات!

اقتربنا ببطء من بعضنا وقد تعلق بصر كل منا بالآخر كأنه يرى قطعة ناقصة منه يبحث عنها منذ زمن طويل، كأنه وجد إجابة لأسئلة أثقلت فكره وأزهقت خياله لأيام عديدة، كأنه يرى فجراً لظلماتٍ كانت عقيدةً لليالٍ طويلة قاسية، جداً!

وعندما قتلنا المسافة بين أقدامنا؛ وجدتها تلقي بجسدها علي وتعانقني لتقتل المسافة بين قلبينا، واحتلت كياني في تلك اللحظة مشاعر متضاربة متداخلة مركبة معقدة، كل هذا يشعر به قلبي تجاهها ولم ينفجر بعد، يا لقوته!

عانقتها بقوة أنا الآخر وقد انهمرت دموعي، ولم نأبه لنظرات رواد المقهى أو المارة، نصبنا نفسينا حاكمين على العالم في تلك اللحظة فلم نأبه لأحد، شعرنا أن الأرض وكل ما فيها من جمال قد أصبح لنا، ولم تكن هنالك قوة تقدر على فصل جسدينا وروحينا في تلك اللحظة؛ فقد امتزجنا؛ كأن كلاً منا دخل روح الآخر وتغلغل فيها فعلم كل شيء دون أن ينطق الآخر بكلمة!

إني حتى لم أسألها في تلك اللحظة ما إن كانت قد سامحتني أم لا!

أذكر أني وسط أحضانها ظللت أردد كطفل صغير لحوح: "هنالك أمور كثيرة جداً أود أن أقصها عليكِ، لكِ عندي حكايات طويلة سأجن إن لم تسمعيها!"

أفلتت من بين أحضاني وأخرجت زوج العدسات، وقالت بامتنان من بين دموع عينيها الحلوتين الساحرتين الآسرتين الجلادتين المعذبتين القاسيتين اللتين يليق بهما كل وصف حلو وعذب وفياض بالمشاعر: "عدسة لك وعدسة لي؛ فيرى كل منا نصف الدنيا بالألوان ونصف آخر دونها، نرى الدنيا على الحقيقة التي يفترض بالإنسان أن يراها!"

لكني لم أعد بحاجة لرؤية الألوان يا حنين...

أنتِ الألوان!

بل الجمال كله، بل الحياة بأسرها!

أخذت منها واحدة بالفعل، وقبلت يدها بعنف وما زالت أنهار دموعي تأبى الجفاف، ولم تسحب هي يدها على الإطلاق إلى أن أبعدتها عن شفتيَ ببطء، وظللت أكرر أسفي كمن يهذي؛ فقبضت على يدي وهي تقول بحنان افتقدته منذ وقت طويل: "ما زلت تذكرني وتأبه لي وتود أن أرى الألوان؛ هذا قد يشفع لك!"

و...

لا مزيد لأقوله!

لكني أعلم أنكم لا تثقون بي الآن، وتظنوني أخبئ عنكم أمراً آخر، والحقيقة أني أفعل لكن...لا أعلم كيف ستكون ردة فعلكم تجاهي!

بصراحة، أنا أكتب هذه المذكرات منذ بدايتها وقد أصبحنا معاً مجدداً في منزل واحد، وعادت البهجة إلى حياتنا، وبدأ الشباب بالفعل تصنيع كمية جيدة جداً من العدسات، أخذ منها نبيل، وأخذ منها رفاق الشاب الذين لم ينتحروا – وأتمنى

ألا يجنوا مجدداً فتراودهم هذه الأفكار ثانية يوماً ما – وأخذت وحنين منها، وأخذنا لمولودنا الذي ننتظر قدومه!

و ما أود أن أقوله حقاً كختام؛ أن حنيناً تبدو رائعة الجمال وهي حامل![٤]

[٤] شايفك مبسوط وبتضحك، اسمحلي أمارس هوايتي بقا وأنكد عليك وأقولك إن دي مش نهاية رسمية للقصة أعترف أنا بيها، بس هي للناس الأوفر اللي زيك كدا...يلا حصل خير، مع إن كان نفسي أموتهم والله بس للأسف.